أ . د. سمير عبد الرحمن هائل الشميري

القــراءة عنـــوان للثقــافـــة والتــمــدن

الفهرس

المقـــدمـة:-

من السـنن الحميـدة في حياة المجتمعات المتـمدنة الاهتمام بالتعليم والقراءة والدرس , الناس يقرؤون في كل مكان في الحدائق والمتنزهات وفي الحافلات والقطارات والمترو وفي المزارع والمصانع وعلى ضفاف البحر والبحيرات والأنهار .

المكتبات لا تحصـــى عـددها في المدارس والكليات والمعاهد والأزقة والأحياء السكنية والإدارات ومؤسسات الشغل والاعمار , فمعظم الناس في العالم ينظرون إلى العلم على أنه الشاهد الوحيد على الحقيقة (١) .

فالكتاب له بصمة عزيزة في قلوب المبدعين , وهو غذاء للروح والعقل والقلب , وكلما كانت هناك قطيعة مع الكتاب , كلما تفشت فيروسات الجهل وتوطن التخلف في أعماق الإنسان : ولكي يصبح العلم والتفكير العلمي ثقافة , فإن الأمر يتطلب تغيير مفاهيم التنشئة الاجتماعية منذُ المراحل المبكرة في حياة الطفل العربي , بما في ذلك القصص والحكايات والحوادث التي تسرد له في سنين حياته الأولى , والتي تمتلئ في معظم الأحيان بالعفاريت والجن والسحر وغير ذلك من الأوهام والتخيلات عن عالم وهمـــي (٢) .

إننـا ضــد التزمت وفي الضفة الأخرى ضــد الانفتاح الساذج والرخيص ومع العقل المــرن والمنفتح .

وعندما لا تهتم المؤسسات بالقراءة , والكتاب والثقافة الحقيقية و تهمل العلم والعلماء , فإن ذلك يشكل طاقة خطـر على المجتمع , وتشعر بعض النخب أنها ليست بحاجة للعلم والكتاب والثقافة والنور , فترتكب حماقات قاتلة , كتلك الحماقات التي حدثت في الثورة الفرنسية حين أطاحت بـ١٤٠٠ رأس من البشر ,

وفي معمعة الأحداث اقتيد عالم الكيمياء الفرنسي أنتوني لافويزي إلى المقصلة مع عظيم إذلال واعتساف لآدميته , فأخـذ يصرخ في وجهه ضابط ببزته العسكرية لا يعرف لغة الرحمة (الجمهورية لا تحتاج للعلمـــاء) .

الكتاب يجيب عن الاستفسارات التالية :-

- ما علاقـة القراءة بالثقافة ؟
- ما فوائد القراءة للإنسان ؟ وهل تساعد القراءة على تشكيل القيم الاجتماعية ؟
- ما علاقة المبدعين بالقراءة ؟ وهل نعاني من فقر ثقافي ؟
- ما العوامل التي أدت إلى عزوف الشباب عن القراءة ؟

١-المكتبـــات وثقافـة القـــراءة :-

للقراءة طقوس لذيذة لا يفهمها إلا من أدمــن حــب الكتـب والمكتبـات , وعشق الأحرف وكسـر شرنقة التيبس الفكري . فصالات القراءة فيها جـو من الرهبة والخشوع , فيها نسمع همس الكتب وهتافها الروحي ومناجاتها لعقولنا وأفئدتنا .

منــذُ نعومة أظافرنا تعلمنا القراءة في البيت والمدرسة والمكتبات , وتعزز هذا الحب للقراءة عندما وطنا أنفسنا على شـراء الكتب والصحف والمجلات ومتابعة آخر الإصدارات في عالم النشر , تعلمنا لغـة الإشارات والكلام المهموس في قاعات المطالعة وقت الضرورة .

فمكتبة مسواط (كريتر – عدن) فتحت أعيننا على العالم ووطـدت صداقتنا بالكتب والمجلات وزرعت في نفوسنا عشق القراءة ورعشة التساؤل وحب الإطلاع .

وفي سنوات الدراسة الأكاديمية زاد نهمي للقراءة وتمتنت صداقتي بالكتب والمكتبات , وتأثرت بقامات الفكر والثقافة اللذين أكلت الكتب أبصارهم , ولا يبارحون المكتبات إلا عندما توصد أبوابها , ويكونون أول الوافدين إليها في الصباح الباكر .

فالكتاب غذاء للعقل والروح , وعندما يتقاطر الناس على المكتبات ويبتاعون الكتب ويلهثون وراء الإصدارات الجديدة , يؤشر ذلك على سمو الوعي ونهضة العقـل .

لقد وجه مرة عميد الأدب العربي د. طــه حسين (١٨٨٩ – ١٩٧٣ م) نقـداً للشباب حيث قال : أنهم لا هــون عن القراءة الجادة , تجذبهم أضــواء السينما والتلفزيون ينشغلون بها عن قراءة أمهات الكتب التي تفتح لهم آفاقاً واسعة ,

وتضيء أمامهم الطريق وتخلق منهم المثقف الواعي المستنير , فالشباب الذين يعرفون اللغة العربية عليهم أن يدرسوا الأدب العربي القديم والحديث , والذين يعرفون اللغات الأجنبية عليهم أن يطلوا منها على العالم الرحب الفسيح للفكر والثقافة الأجنبية وهذه الوسيلة الوحيدة لكي ينتجوا شيئاً ذا بال (٣) .

فالقراء في مكتباتنا على قلتهم ليسوا من الطراز الرصين , فقسط منهم يدلفون المكتبات لا للبحث عن المعارف والعلوم , بل للاسترخاء والتمتع بهواء المكيفات وللتعارف والدردشة مع الأصدقاء .

فعدم احترام قدسية المكتبات مظهر من مظاهر التقهقر المجتمعي . فالمكتبات عنوان لحضارة وتمدن المجتمعات , وتعتبر جزءً من الهوية الحضارية للشعوب , وكل شعب من الشعوب يفتخر بعلمائه ومثقفيه ومكتباته , فالفرنسيون يفتخرون بمكتبة السربون التي أسست عام ١٢٥٧م , والإنجليز يفتخرون بمكتبة أكسفورد التي أسست ١٦٠٣م , والأمريكيون يفتخرون بمكتبة الكونجرس التي أسست ١٨٠٠م , ونحن كعرب نفتخر بمكتبة بيت الحكمة في بغداد التي أنشئت عام ٨١٣م , والمصريون جذلون بمكتبة الإسكندرية ونشاركهم الفخر والاعتزاز , فهذه المكتبة تأسست ٢٨٨ ق.م والتي أعيد افتتاحها عام ٢٠٠٢ م , وتقدر مساحتها بـ ٤٠٢٠٠ متر مربع ويعمل فيها ١٥١٧ موظفاً حيث تتسع قاعات القراءة لألفي قارئ .

ونفتخر بالمدن المدهشة التي أصبحت عنواناًً للثقافة والنشر والقراءة ، نعتز ببيروت العاصمة العالمية للكتاب لعام ٢٠٠٩م . فلبنان البلد الصغير بمساحته والكبير بتأثيره الثقافي والمعرفي مفعم بالحيوية والحراك الثقافي شهد :

نمواً مطرداً في عدد الدور والمطابع اللبنانية . فمن ٩٥داراً و ٢٥ مطبعة عام ١٩٦٢م إلى حوالي ٤٩٠ داراً و ٥٠٠ مطبعة سنة ١٩٨٥م ، إلى ٦٤٠ داراً و ٧٠٠مطبعة سنة ٢٠٠٤م ، وصولاً إلى ٦٥٥داراً مسجلة لدى نقابة إتحاد الناشرين ، ونحو ٢٠٠ دار غير مسجلة و٧٥٠ مطبعة سنة ٢٠٠٩م ، وبالرغم من ازدهار هذه الصناعة وانتشار مئات دور النشر في العالم العربي ، فإن لبنان لا يزال على لائحة الدول الأكثر تصديراً للكتب ، إذ تصدر دور النشر اللبنانية سنوياً ٣٠٠٠ عنوان جديد ، بما فيها الكتب الأجنبية والمترجمة (٤) .

فالمكتبات في بلادنا قليلة وشحيحة بمحتوياتها , ومن أقـدم المكتبات اليمنية , مكتبة الجامع الكبير في صنعاء (١٩٢٥م) , ومكتبة الشعب في المكلا (١٩٣٠م) , ومكتبة مسواط في عـدن (١٩٣٥م) .

ولا ننسى أن نشير إلى مكتبة السعيد التابعة لمؤسسة السعيد للعلوم والثقافة حيث قامت بأدوار مهمة في إشاعة ثقافة القراءة ويتضح أن العدد الإجمالي لمجموعة مكتبة السعيد في ١٢/ ١٢ / ٢٠٠٦م قد بلغت من الكتب العربية (٤٠٠٢١) كتابا و (٤٠٥٨) كتابا بلغات أجنبية حية , كما بلغ عدد الدوريات (١١٤٦٠) دورية , كما بلغت كتب الأطفال والناشئين (٦٢٣٨) كتاباً في حين أن أفلام الفيديو بلغت (٩٧٣) فلماً وقد بلغت البحوث غير المنشورة (٧٤٣) قرصاً , وبلغت الأطروحات الجامعية (١٧٢) أطروحة (٥) .

لقد دهشت مرة عندما دخلت مكتبة (...) , فوجدت الشباب يساجلون بعضهم بعضاً بأصوات صاخبة , وآخرون يتبادلون الرسائل عبر الهواتف الجوالة وقسط ثالث يتلذذون بسماع الأغاني للترويح عن النفس .. ويقف موظفو المكتبة مكتوفي الأيدي لا يلفتون انتباه الزائرين إلى ضرورة الاحتشام وعدم جرح الذوق العام .

يقول الأستاذ د. عبد العزيز المقالح : ولا أخفي أنني عندما أكون في المكتبة أشعر أنني اسمع إلى أصوات بعـدد الكتب الموجودة في المكتبة , أصوات لقدماء ومعاصرين لفلاسفة وشعراء وروائيين ونقاد , وهذا التخيل – في حـد ذاته – يضيف حالة من السعادة والإحساس بالزهو (٦) .

لنتعلم ثقافة الصمت ولباقــة الحوار مع الكتب , وتقنية مناجاة الروح والوجـدان الذهني , والإبحار في شبكة الإنترنت والغوص في بطون الكتب والمجلات والدراسات والمخطوطات , واصطياد المعارف واكتناز المعلومات لمواجهة الانعتام وإزاحة الفقر المعرفي دون صخب أو ضجيج يسمم الهـدوء ويستفز مشاعر القراء في قاعات المطالعة .

- 2القـــراءة عنصر من عناصر الثقافة :-

الثقافة مصطلح في علم الاجتماع ,و(الإنتروبولوجيا) هو طريقة حياة مجتمع معين , أو جماعة من الناس , بما في ذلك أنماط تفكيرهم ومعتقداتهم , وسلوكهم , وعاداتهم وتقاليدهم , وطقوسهم , ولباسهم ولغتهم وفنونهم وموسيقاهم ,وأدبهم .. وترمز إلى طريقة الحياة كلها , المادية والروحية لمجتمع ما , كما تدل كلمة ثقافة على الفنون والنشاطات العقلية بشكل عام (٧) .

وتشمل الثقافة : كل القيم المادية والروحية – ووسائل خلقها واستخدامها ونقلها – التي يخلقها المجتمع من خلال سير التاريخ . وبمعنى أكثر تحديداً , فإنه من المعتاد التمييز بين ***الثـقـافــة المادية*** (أي الآلات والخبرة في ميدان الإنتاج وغير ذلك من الثروة المادية) , ***والثـقافـــة الروحيــة*** (أي المنجزات في مجال العلم والفـن والأدب والفلسفة والأخلاق والتربية ..... الخ) .

الثقافة ظاهرة تاريخية ويتحدد تطورها بتتابع النظـم الاقتصادية والاجتماعية (٨) .

والقـــراءة عنصر من عناصر الثقافة , وأداة من أدوات الخلق والإبداع والنماء والمعرفة , وتشكل القراءة أحـد العناصر المهمة في الثقافة , فعناصر الثقافة كما تشير المراجع العلمية هي (٩) :

١- اللغـــة ,٢- القـراءة والكتابة , ٣- الفــن , ٤- العقائـد , ٥- المعارف العلمية والثقافية , ٦- العادات والتقاليد .

فلا يمكن تصور ثقافة حقيقة دون قراءة حصيفة ومتنورة . فالله سبحانه وتعالى يقول في محكم كتابه : " اقرأ باسـم ربك الذي خلق , خلق الإنسان من علق , اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .." سورة العَلَقْ ".

فالقراءة غـذاء للعقل والروح , والكتاب من أنبل وأعظم الأصدقاء , ولذلك يقول الشاعر أحمد شوقي :

أنا من بدل بالكتب الصحابا لم أجد لي وفياً إلا الكتابا

لم يستطع المؤرخون تحديد زمن ظهور الكتب الأولى , ولكن الدلائل تشير إلى أن ذلك حدث في مصـر في عام ٢٧٠٠ ق . م , على ورق البردي الذي ينمو على شاطئ النيل . علماً بأن الكتب المصرية القديمة كانت تتكون من لفائف البردي .

ثم أستعمل سكان بابل الطريقة نفسها في الكتابة . أما الصينيون فقد صنعوا الكتب على الألواح بجانب لفائف البردي وحاكاهم الرومان إلى أن استعين بالورق الجلدي (الرق) بدلاً من الوسائل الأخرى . وجاء الرومان بنظام مجموعة المخطوطات في القرن الثاني الميلادي وهو نظام أجدى من اللفائف . وأستعمل الهنود ورق النخيل لكتابة الفيـدا الكتب الهندوسية المقدسـة . وكتب العرب والمسـلمون في صـدر الإسلام على جريد النخيل والرقاع الجلدية , واللخاف (حجارة بيضاء عرضية رقيقة) .

أما أول مطبعة في العالم العربي فهي مطبعة بولاق التي أنشئت في مصر عام ١٨٢٢م . وعرفت أول مطبعة في فلسطين ١٨٣٠م , وفي لبنان عام ١٨٣٤م , وفي اليمن ١٨٧٧م , وفي الحجاز ١٨٨٢م (١٠).

القراءة تخلق في أعماق الإنسان سلطة تسمى ***سلطة المعرفة*** , فتنشر أنوارها وإشعاعاتها في الزوايا المظلمة في المجتمع , بحيث تشكل قوة معتبرة إلى جانب سلطة السياسة والمال .

فهي إحدى الروافد الأساسية في خلق الثقافة في المجتمع وعند الأفراد , حيث تصبح الثقافة على حـد تعبير الأستاذ أحمد أمين العالم (الصناعة الثقيلة في الإنسان) .

فالقراءة هي اللبنة الأساسية في تكوين المعارف والعلوم والسلاح الأمضى في محاربة الجهل والتخلف والتقهقر الحضاري .

فصاحب القلم – على حد تعبير جمال الدين الأفغاني – لا يحتاج إلى عصـا . لأن عصاه وسلاحه العلم والمعرفة .

لماذا ينفر الكثيرون من القراءة والكتب والمطالعة والدرس , ويخافون من الكلمة واليراع والثقافة , على طريقة وزير الثقافة الألماني في إحدى المسرحيات الذي قال : ((عندما أسمع كلمة ثقافة أتحـسـس مسـدسـي)) .

أو على طريقة الإمام أحمد يحي حميد الدين الذي أشهر السـيف في وجـه المنور والمثقف اليمني أحمد محمد نعمان : هـذا هو الدسـتور يا نعمان .ووقف ضـد رجال التنوير في اليمن ومطالبتهم بدستور وحكم عادل وقال بأن هــؤلاء (يريدون استبدال القرآن بالدستور) (١١) .

فالمثقف والمتنور وإن كان رئيسـاً يقدر الثقافة والكتاب والقراءة والعلم والمعرفة .

يحدثنا التاريخ عن ملوك ورؤساء وسلاطين متنورين أحبوا القراءة وارتشفوا من مناهل العلوم وتشبعوا بمعاني الثقافة وأصابوا الحق بالحكمة والعقل وأصبحوا ملئ السمع والبصر ودفعوا بعجلة النماء إلى الأمام وأبحروا في سياحة معرفية للخروج من شرنقة الجمود والتخلف و قرؤوا بإمعان تضاريس الواقع ولفظوا الجور والعسف وأشاعوا مناخات الحرية والإبداع والنهضة ورقي العقل البشري .

ومن أنبل الشخصيات التي حكمت الهند السلطان أكبر (١٥٥٦-١٦٠٥م) :
فقد كان على الرغم من جهله للقراءة مطبوعاً بطباع العبقرية . فكان عبقرياً في السياسة والحرب ، كما كان في فن الحكم وبناء الدور العامة .
ومع أنه كان يجهل القراءة ، فإنه لم يكن يجهل قيمة الكتب . فقد كان يقتني الكتب ويبعث في طلبها إلى أقصى البلدان ، وكان يستخدم قارئاً يقرأ له . وكان مجلسه يحفل بالعلماء والمفكرين ويناقضهم ويناقشهم ويستنير بحديثهم . واهتماماته الذهنية تدل على أنه عرف كثيراً وفكر كثيراً .وحملته المعرفة مع التفكير على أن يجرؤ ويقتحم في المذاهب والعقائد ... فأستخدم عظماء الهندوكيين في المناصب العالية في الجيش والحكومة . فكان وزير المالية هندوكياً وكان بعض الأمراء الهندوكيين قواداً في جيشه . ثم ألغى الجزية التي كانت مفروضة على الهندوكيين دون المسلمين وعمم المساواة في الضرائب بين الطائفتين . ولما رأى الهندوكيين مرهقون بتقاليدهم وعاداتهم عمد إلى الإصلاح . فمنع إحراق الأرملة ، ومنع زواج الأطفال ، وأجاز زواج الأرامل ، ومنع التحقيق بالتعذيب ... وقد قلنا أن السلطان أكبر لم يكن يقرأ ، ولكن احتفاله بالعلماء جعل مجلسه نادياً يجمع العربي والفارسي والهندوكي والتركي يجتمعون بين يديه ويتناقشون . وكان أعظم ما يهتم له أكبر ، تلك الخلافات التي كانت فاشيه بين المسلمين والمسيحيين والهندوكيين . وكان يود لو يصل إلى الحق الذي يسكن إليه هؤلاء فلا يكون خلاف [١٢] .

فالجاهل لا يعطي وزناً للقراءة والثقافة والتنوير وينظر بشيء من الازورار إلى العلماء والمثقفين ، أما المثقف الذي يعرف معنى القراءة والتنوير يجل ويحترم حملة الأقلام والمبدعين وأهل العقول النيرة الذين يهزون عروش التخلف بصهيل الحرف وهديل الكلمات وبإبداعاتهم المسموعة والمقروءة والمرئية بتلاوينها الطيفية .

فعنـدما سُئل الرئيس الفرنسي فاليري جكسر دستان : ممــن تخاف ؟ !!

أجـاب من ســــلطة الثقـافة .

والرئيس الفرنسي جورج بومبيدو , قاوم فكرة إدخال المفكر الفرنسي جان بول سارتر السجن , بعد صـدامه مع مؤسسات الإكراه التي منعت طباعة وتداول صحيفة " قضية الشعب " , ويرأسها جان بول سارتر , فنزل إلى الشارع يوزع بنفسه أعداد الصحيفة على الجمهور الفرنسي , فاعتقلته هيئات الضبـط الرسمية , فوصل الخبر إلى الرئيس جورج بومبيدو الذي أمر بإطلاق سراحه حيث قال :

" إني لا أستــطيع أن ادخل الثقافة الســـجن " .

فالقراءة ليست فقط متعة للنفس بل أنها تعمل حسب تعبير د . صابر عبيد :

على صعد تشكيل لسان القارئ على بعث لغته والارتفاع بتعبيره , وتحديث أسلوبه , بما يخلق لديه سياقات التفكير الصحيح , وتنشئ مساحة للتأمل ومرآة تضاعف إحساس الفرد بالأشياء على نحو تحقيق تعادليه فيه - موضوعية – بين الداخل والخارج (١٣)
.

فالقراءة في الكتب والمجلات والصحف والدوريات أو عبر شبكة الانترنت تضيء مضائق الأذهان وتحول العتمة إلى نور وتمنحنا النشاط الذهني وجرعات من العلم والمعرفة والتفقه وتعطينا نوراً وبهاء وسط الظلمة الحالكة , وتصوب خطواتنا وتجعلنا نزن الأمور بقسطاس الحكمة والتبصــر .

شهد العقدان الأخيران فورة ثقافية عربية إذا ما جاز التعبير تتمثل بإقبال القطاعين العام والخاص أو كليهما على تشجيع بعض عناصر الثقافة أو أدواتها ، كالقراءة والكتابة الإبداعية والبحثية ، والفنون بأشكالها كافة من رسم ومسرح وسينما ، ناهيك عن المؤتمرات والندوات الموزعة بين عواصم البلدان العربية وأقاليمها المختلفة والمهرجانات الشعرية والفنية والثقافية ، فضلاً عن المبادرات التشجيعية على القراءة كـ((**الحملة القومية للقراءة للجميع في مصر**)) التي أنبثق عنها **مشروع مكتبة الأسرة** التي وصل عدد المستفيدين منه ٢١مليون قارئ ، وطبع حوالي ٧٠ مليون نسخة من إصدارات المكتبة تم توزيعها بثمن زهيد جداً لتكون في متناول الجميع ، فضلاً عن إنشاء حوالي ١٨ ألف مكتبة في أنحاء مصر ، عدا الندوات والمحاضرات والمسابقات الثقافية في جميع المحافظات ، بحيث بلغ عدد الندوات حوالي ٧٦ألف ندوة ،وعدد المسابقات الثقافية حوالي ١١٥ ألف مسابقة ، والمحاضرات حوالي ٥٠ ألف محاضرة ، واللقاءات حوالي ٦٥ألف لقاء . وهناك مشروع ((كتاب في جريدة)) أطلقته منظمة اليونسكو وأوصل روائع الأدب العالمي إلى القراء العرب على شكل ملحق يجري توزيعه ضمن الصحف اليومية ، بالإضافة إلى مراكز ومؤسسات الترجمة مثل ((المركز الوطني للترجمة في تونس)) و ((المشروع القومي للترجمة في مصر)) ، ومركز الترجمة في ((المجلس الوطني للثقافة في الكويت)) ، و ((المنظمة العربية للترجمة في لبنان)) والتي تهدف إلى ترجمة الأعمال الفكرية والإبداعية العالمية إلى لغات عالمية ، كما أطلقة هيئة أبوظبي للثقافة والتراث مشروع ((كلمة)) الذي يهدف إلى ترجمة مائة كتاب إلى العربية كل عام تحت شعار ((إحياء الترجمة في العالم العربي)) (١٤) .

فثمة منافع متعددة بألوان طيفية للقراءة في حياة الفرد منها : -

١- تفتح نور الحياة أمام القارئ , وتجعله يحل كثيراً من الطلاسم المبهمة في حياته وفي بيئته الاجتماعية وتغير نظرته للحياة وتجعله ينظر بشمولية إلى العالم والكـون .

٢- تعطـــي القارئ أفـق جـديدة في التأمل والتفكر والتبصر وتنمي لديه ملكة الإبداع وتمنحه جرعات من الثقافة والمعرفة والتفسيرات الصائبة للأمور .

٣- تقوي لدى القارئ الذخيرة اللغـــوية والتعبيرية وتعلمه مهارة الكتابة .

٤- تمكن القارئ من تغيير أسلوب حياته وطرق معاملته للناس , بعد أن قرأ بإمعان مفــــــردات الواقع .

٥- القراءة تغير نمــط التفكير لدى القارئ وتنقـــله من نمـــط التفكير السطحي غير العلمي إلى نمط التفكير العقلاني والواقعي الخالي من الشطحات .

٦- القراءة النابهة تعطي القارئ قاعدة مناسبة لتفكيك وتحليل الأمور والقضايا بموضوعية متزنة خالية من النزق والتبجح .

٧- القراءة تعطي القارئ اللبيب الفصاحة والبيان وتصقل المعاني والألفاظ , وتنمي لديه الملكــة اللسانية , وتقلل من سؤ الأداء اللغوي البليــد .

٨- القراءة تنقل للقارئ المعارف والمعلومات والعلوم والخبرات العلمية والثقافية والحياتية ليغني معارفه وتؤثر فيه لما فيه مصلحة الخير العام.

٩- القراءة تقوي لدى القارئ النجيب ملكة النقد وحرية الإبداع , فالنقد والإبداع مرحلتان لا يمكن الوصول إليهما إلا عبر تراكم ثقافي خصيب وقراءات عميقة وحصيفة وشاقة تغـذي ينبوع النقد وملكة الإبداع لدى القارئ الاستثنائـي .

١٠- القراءة تجعل القارئ المتمكن من استخدام لغة العلم والثقافة والتمدن وترشده في استخدام التفكير المنهجي السليم وأدواته المنضبطة والإسهام في تغيير جغرافية العقل .

١١- القراءة تمكن الإنسان الواعي من صياغة الأسئلة الذكية , ومعرفة الهدف والتفريق بين ما هو أساسي وضروري في إيقاع الحياة اليومية ,وما هو فرعي واستثنائي .

١٢- القراءة تفسح المجال للإنسان لمعرفة ذاته وقراءة سلوكيات وتصرفات الآخرين , وترفع لدى القارئ منسوب الذكاء العقلي والذكاء العاطفي . وتهذب الذائقة البصرية والأخلاقية وتقمع النوازع الذئبية والغريزية في الإنسان .

١٣- القراءة تعطينا متعة وسكينة روحية وتشكل القيم المعرفية والثقافية والجمالية والسلوكية لدى الأفراد .

- 3القــــــــراءة وصناعـــــة القيـــم :-

إن كلمة " قيمة " تدل على أن الشيء يحمل في ذاته منفعة أو وزناً وثمناً . وكلمة قيم هي جمع كلمة قيمة وتدل على أنواع المعتقدات التي يحملها الشخص أو مجموعة أو مجتمع بأسره ويعتبرها مهمة ويلتزم بها وتحـدد له عادة الصواب من الخطأ والصالح من الطالح والجيد من السيئ والمقبول من المرفوض في السلوك الإنساني.

فالقيم داخلية للإنسان تنمو وتتطور من خلال العائلة والأصدقاء والمدرسة والتعاليم الدينية ومكان العمل . فالقيم هي المرشد والدليل والسلوك , والتي يتم في ضوئها تفضيل تصرف على الآخـر ,وهي بمثابة المعيار الذي يحتكم إليه الفرد في تقييـم سلوكه وسلوك الآخرين (١٥) .

فالقراءة تعـزز القيـم أو تشكل قيـماً جديدة في أعماق الروح البشرية .

وأهـم وظائف للقيـــم الاجتماعيــــة هــي :-

١- تماسك النماذج . ٢- وحـدة الأشخاص . ٣- التكامل الاجتماعي . ٤- الرموز والفعـل الاجتماعي (١٦) .

وتوجه القيم سلوك الإنسان وتنظم علاقاته بالآخرين والواقع والزمن نفسه . وفي علاقته بالواقع , وقد تحثه على السعي والجهاد في سبيل السيطرة على الواقع وتغييره أو على العكس , على القبول به كما هو والتلاؤم معه . وفي علاقته بالآخرين , قد تشكل القيم عند الإنسان مبادئ عامه كليه يطبقها على الجميع دون تمييز على أساس العنصر أو الدين أو غيره , أو تشكل مبادئ تخصصية تخضع لأهوائه ومصالحه وعصبياته .

وقد ينزع الإنسان نزوعاً عقلانياً أو عاطفياً , فردياً أو جمعياً , رسمياً أو عفوياً , ملتزماً التزاماً تعاقدياً جزئياً أو التزاماً وجودياً كلياً . وقد يكون الإنسان تابعاً أو مبدعاً منفتحاً أو منغلقاً على نفسه , امتثالياً أو متمرداً , منهجياً أو ارتجاليا , مبـــدئياً أو انتهازياً , فوقياً يتمســـك بالقيم العمودية (الوجاهة و الاستعلأ والتسلط) أو القيم الأفقية (الأخوة والصداقة والزمالة والمساواة) (١٧) .

القيم الاجتماعية منبتها البيئة الاجتماعية فهي تتشكل في إطار :

الأسرة , المدرسة , الفضاء الاجتماعي العام الأصدقاء , الدين , المؤسسات الدينية , منظمات المجتمع المدني , وسائل الاتصال, الكتب والصحف والمجلات , إيقاع الحياة اليومية , نمـط الحياة المعيشيــة .

ولكل مجتمع منظومة قيمية تميز أفراده , وتحدد مدى قدرته على تحقيق الكسب الحضاري , والمحافظة على مكتسباته والعمل على تنميتها . وعلى المجتمعات المتطلعة إلى خلق مجتمع النهضة أن تبدل الجهد المضني في سبيل تشكيل منظومة قيمية مجتمعية تلائم ما تطمح لتحقيقه , وتمتلك القدرة على التعامل مع ضرورات التحديث , وتعاطي مفاهيـــم التحضر بوعـــي قادر على الاستيعاب والتفاعل المثمر (١٨) .

وعليّ واجب التنبيه , أن القراءة التي أتقصـدها في هذا السياق هي القراءة المنفتحة والعقلانية , " القراءة التي تصنع الإنسان المتكامل " , على حـد تعبير المفكر فرانسيس بيكون , التي تنشر قيـم الاستنارة , وقيمة الولأ والانتماء للمجتمع , والتي تؤدي إلى إنتاج كثيف للمعارف و تخلس جلدة التخلف الزمني والكمي ,

وتؤدي إلى إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإصلاح الحال ونبــذ ثقافة العنف والكراهية والعنصرية والاستقصاء , وتأخذنا إلى مناطق الأسئلة الملحة ويقظة العقل وإلى المجتمعات المتمدنة التي تحترم الإنسان ولا تتفنن في البطش به وتعـذيبه .

فالقراءة المنفتحة غير المتزمة تأخذ بيدنا لتجاوز منطقة الخوف وتقتحم السواتر الصلدة التي تحجب النور على العقل والقلب ولا ترضع من ثدي فكري ضامر .

أهجس أن القراءة المتبصرة غير المصابة بفيروس العزلة والانكماش , لا تؤدي إلى اضطراب البوصلة الفكرية عند القارئ بل تعزز لديه القيم الحميدة .

فالقراءة اللبقة تعـزز قيــم :

المحبة والوداد والتسامح والإخاء والحرية والعدل والإنصاف والعلم والمعرفة والاستنارة والتفكير العلمي والمنطقي والواقعي وتعزز الهوية الوطنية والقومية والإسلامية والإنسانيــة بوجه عام .

٤- القـــــراءة والمبـــدعــون :-

القراءة الفطنة توسع المدارك وتفتح آفاق الإبداع للمبدعين , وتطور ملكة الخلق والإبداع لدى المتميزين . فبدون القراءة تضــمر الموهبة ويتيبس الإبداع الحقيقي .

في الزمن الفارط , كانوا يقطعون ألسنة الشعراء والخطباء والمغنيين , ويبترون أنامل العازفين ورؤوس المفكرين النيرين , كــي لا يضيئـوا الطريق لشعوبهم .

فقتل أي شعــب من الشعوب يبدأ بقتل المثقفين والمتنورين صانعي القيم والمُثل والوجدان والحراس الأمناء على أصالة وتراث الشعب وعلى عاداته وتقاليده وذاكرته التاريخية واللغوية والفنية والوجدانية .

فالفلاح في الحقل ينتج ثمرة وزراعة والعامل في المصنع ينتج مستلزمات حياتية ومادية للمجتمع , والمثقف في حقل الإبداع ينتج ثقافة ومعرفة وأفكاراً وقيماً ومُـثلاً ويـعيد تجديد الروح والوجدان والنفوس من الهرم والتيبس والانطواء [١٩] .

السلطات الشمولية تخاف من المثقف والنور والكتاب , فلقتل الثقافة والضياء في عقول وأذهان الشعوب , تبادر السلطات في خنــق صوت الحق للأدباء والمفكرين والمثقفين وتبادر لحرق الكتب والمكتبات وهدم مؤسسات النور والعلم والثقافة , وحتف رجالات الفكـــر .

فنيرون في روما كان يتلذذ بقتل المتنورين عندما تنهش أجسادهم الأسود بين القضبان ,قبل أن يحرق روما ويتزوج أمـــه .

هولاكو عندما أسـقط الدولة العباسية ودخل عاصمتها بغداد ١٢٥٨م , أحرق الكتب ومزق المخطوطات ورمى بالكتب والتراث الفكر العربي والإسلامي في نهـــري دجلـــة والفــــرات .

الأمريكان عندما احتلوا بغداد في ٩/ ابريل /٢٠٠٣م , قاموا بتدمير وسرقة المتاحف وإتلاف وإحراق المكتبات ودمروا مؤسسات العلم والمعرفة , وتعرض بعض العلماء للقتل والذبح والتعذيب والتنكيل , لأنهم يشكلون عقل وضمير الأمة .

وقبل ذلك في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين عندما استولت الفاشية على السلطة في إيطاليا وألمانيا قامت بالتنكيل بالمثقفين وأحرقت الكتب .

فالشعوب لا تتقدم قيـد أنمله إلا بوجود الرأسمال البشري المنتج , وعندما تنتج الشعوب ممثلة برأسمالها البشري النظريات والأفكار العلمية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية والجمالية تتطـور الشعوب .

اليابان لا توجـد فيها ثروات طبيعية , وإنما لديها رأسمال بشري ينتج نظريات وعلوم وتكنولوجيا . فاحتلت المرتبة الثانية في الاقتصاد العالمي بعد الولايات المتحدة الأمريكية .

في مجتمعاتنا المتخلفة لا يوجد اهتمام بالعنصر البشري المثقف والمتعلم , فالمتنورون إن لم يتم قتلهم أو نفيهم أو حبس أصواتهم يتم السخرية بهم والنظر إليهم بنوع من الازورار .

وتعرضت طوابير طويلة من المفكرين والعلماء للقتل والتعذيب والاضطهاد مثل :-

- ابن رشـد , جاليليو , برونو , الحلاج , ابن المقفـع , والبعض منهم دفـن كتبـه في باطن الأرض مثل عمرو بن العلا , وصنف آخر رمـى كتـــبه في البحر مثل داؤود الطائي , وصنف ثالث من شـدة غيضه واتهامه بالزندقة والكفر أحرق كتبه مثل أبي حيان التوحيدي , وعلى نفس المسرب قاما بإحراق كـتبهما : سليمان الثوري , وأبو سعيد السيرافي . فكل العلماء والمثقفين والمتنورين كانوا أصـدقاء للكتـب حتى آخر شهقة في حياتهم :

ابن رشــد , اندريه أمبير , ابن النفيس , جورج آدم , ابن الهيثم , لويس باستير , الخوارزمي , ماري كوري , طــه حسين , الجاحظ , شكسبير , فاروق الباز , باولو كويلو , دانتي , غابريل ماركيز , نجيب محفوظ , بدر شاكر السياب , توفيق الحكيم , عبدالله البرودوني , الشوكاني , عبد العزيز المقالح , أحمد محمد نعمان , العقاد , كـونت , ماكس فيبر , محمود درويش ....

فثمة أناس ينفرون من الكتــب ويضيقون درعاً من مشاهدة القراء .

فالمبدعون يعيشون في خلوة دائمة يغوصون في بطون الكتب ويقرؤون بنهم منقطع النظير .

فالخليل بن أحمد الفراهيدي , أحــد شوامخ اللغة العربية , كانت زوجته تشتاط غضباً من خلوته العلمية وتدخل معه في ملاسنات لفظية وخصام صريح .

وعالم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون منذُ نعومة أظافره تطبع على القراءة فحفظ القرآن (وجوّده بالقراءات السبع) , وقرأ أمهات كتب الفقــه واللـغة والتاريخ والثقافة في عصــره , وصــرف وقتاً ثميناً في الدرس والقراءة واعتزل الحياة في (قلعة بن سلامة) بالجزائر , لتأليف كتابه الشهير " **مقـدمة ابن خـلـدون**" .

والمبدع بلزاك , كان يقرأ في اليوم الواحد ١٥ ساعة , وصاحب رواية " مدام كوري " فلوبير , كان يقرأ ١٢ ساعــة .

والشاعر جبران خليل جبران كان يقضي سحابة يومه في القـراءة .

والفيلسوف ديكارت كان يمتعض من أصحاب العبارات الدخانية الذين يثقبون جدار صمتــه , فينتقل بخفة من مكتبة إلى أخرى ومن مهجع إلى آخر , ويتعمد المرور في الشوارع الخلفية المظلمة يبحث عن مساحة صمــت , كما كان يفعل الروائي المغربي محمد شكري في شوارع طنجــة .

وعندما سُـئل أحـد المفكرين اليونانيين :عن كيفية تقييم الفـرد , قال : سـأسأله : كم عدد الكتب التي قرأتها , وما نوعية هذه الكتب ؟

أما مفكر الثورة الفرنسية فرانسوا فولتير – عندما سُئـل : من سيقود المجتمعات البشرية ؟ أجاب , " الذين يعرفون كيف يقرؤون ويكتبون " , ومن شـدة شغفه بالقراءة , قرأ فولتير رواية " ألف ليلة وليلة " ١٦ مرة .

كان أحـد رؤوساء الولايات المتحدة الأمريكية مشغوفاً بالقراءة إلى درجة استغلال الثواني والدقائق في فترات المقابلات الشخصية والرسمية معه , فعند خروج الأفراد من مكتبه ينتهـز فرصة للـقـراءة .

وعالم الفيزياء العربي د. محمد النشائي , عندما ترك مجال الهندسة والإنشاءات التي كانت تدر عليه ثروة من المال , سأله السـير بوندي ذات يوم قائلاً :

" هل تتـرك كل هذه الأموال من أجل العلم فكانت الإجابـة : بنعم .. لأن العلم أهم مصادر متعتـي في الحيـــاة , كما أنه لم يـعـد لدي الرغبـة في جمــــع المزيـد مـن المال " [٢٠] .

فالقراءة تؤدي إلى خلق ثقافة رصينــة ووعــي متبصــــر ولا نستطيع أن نتصور أن عالماً أو أديباً أو مفكراً بزغ في فضـــاء الإبداع دون أن يرتبط بعروة وثقــى بالكتاب والمكتبات ,دون أن يرضع من ثـدي المعرفة والعلم , دون أن يغوص في بطون الكتب وتأكل عينيه المجلدات والوثائق العلمية , دون أن تحترق أعصابه وخلايا مخــه من القراءة والدرس .

يقول الروائي المصري جمال الغيطاني : أن الشيء الوحيد الذي أنفق عليه بسخاء وبلا تردد , الكتـب , ربما أتردد في شراء الملابس , وحتى المأكل , أما الكتب فلا أحسب لها حساباً [٢١] .

فمن مصلحة الأمة نشر العلم وثقافة القراءة , فالعلم ضروري " كالماء والهواء" حسب تعبير د. طه حسين .

فالمفكر والمثقف والمنور اليمني محمد علي لقمان , بلغ مرتبة عالية من الثقافة إلى جانب علو كعبه في الصحافة والتنوير وحذق اللسان الأجنبية (الانجليزية والهندية) , في طور باكر من حياته قرأ : " كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي " وتاريخ إبن الأثير وتاريخ خلكان , ومئات القصص , عنترة بن شداد العبسي , وسيف بن ذي يزن , والأميرة ذات الهمة , وما لا يقل عن ٣٠٠ رواية من روايات اللص الظريف فضلاً عن قراءته النابهة للشريعة الإسلامية والقرآن والفقه واللغة , وكان خطيباً مفوهاً في المساجد ... ففي العاشرة من عمره حفظ المعلقات وقرأ بنهم منقطع النظير لأبن عربي والغزالي وابن رشد ولأئمة الصوفية ..

فالمبدع يخلق نصه الأدبي والفني بعد قراءات عميقة ورصينة وبعد أن يتشبع بالموضوع وشرب كؤوساً من المرارات والعذابات والمعاناة الوجدانية وبعد أن يتعرض لسلسلة من الاضطرابات والتوترات العقلية والنفسية , فالمبدع شخصية حساسة , وعلى حد تعبير الشاعر صلاح عبد الصبور :- " إن الفنانين والفئران هم أكثر الكائنات استشعاراً للخطر , ولكن الفئران حين تشعر بالخطر تعود لتلقي بنفسها في البحر هرباً من السفينة الغارقة . أما الفنانون فإنهم يظلون يقرعون الأجراس , ويصرخون بملء الفم حتى ينقذوا السفينة أو يغرقوا معها".

فالقراءة عنوان بارز في حياة المجتمعات المتمدنة , ولا يمكن أن تخرج من أعطاف حياتنا الإبداعية , شخصيات متميزة لها بصمات عزيزة في فضائنا الثقافي دون أن تكون قد أدمنت القراءة والكتابة .

فالإبداع الأدبي والفني دون قراءة لبيبة وثاقبة ودون معاناة حقيقة ضرب من السذاجة والبلادة التي تفسد الذوق العام والفضاء الجمالي والتذوقي ..

وهناك ملاحظة لابد من الجهر بها أن نزراً من المبدعين " يحملون حملاً كاذباً " على حـد تعبير الشاعر نزار قباني , ويلهثون وراء الإنتاج الكمي وخلف الشهرة والأضواء الكاذبة , فينتجون إنتاجاً فنياً هابطاً لا ينمي التذوق الجمالي والفني والموسيقي والأخلاقي للجماهير .

فلابد من القراءة الفاحصة والنقـد المتزن , ولا بـد من التريث في خلق النص الأدبي والفني حتى لا ينتج شعراً أو فناً بليداً مشوهاً للأذواق .

فالشاعر التميمي – قال في حياته بيتاً شعرياً واحداً فخلده التاريخ .

ابن زريق البغدادي – قال قصيدة واحدة في حياته ,فأشرق في ذاكرة الزمن .

الأمام محمد البخاري – ظل يبحث عن صحة حديث نبوي شريف لمدة ٢٠ سنه .

سليمان البستاني – ترجم الألياذة لهيمروس إلى العربية عام ١٩٠٤م وقضى ٢٠ سنه يدرس اللغة اليونانية لترجمة الألياذة .

حسن عثمان - صرف ٢٠ سنه من حياته لترجمة " الكوميديا الإلهيــة " لدانتي من اللغة الإيطالية القديمة إلى اللغة العربية .

كارل ماركس – لكي يصدر حكماً على المشاعيـة البدائية في روسيا (عنـــــدما سئـُل عنها) , قام بدراسة اللغة الروسية لكي يقرأ النص بالروسية ويقول حُكمــاً في المشاعية البدائية .

ماكس فيبر – عالم الاجتماع الألماني – لكي يعرف شيئاً عن الثورة الروسية ١٩٠٥م , قام بتعلم اللغة الروسية لكي يقرأ ويتابع ماذا يحدث في روسيا .

الفنان الكبير محمد عبد الوهاب – كان دقيقاً في أعماله الفنيــة , يحب القراءة والدرس ودقيق في أعمالة إلى درجة الوسواس .

الروائي العربي نجيب محفوظ – مشهور بقراءاته الرصينة ودقة عمله وتحكمه بالوقت , تعلم الفرنسية لكي يقرأ لمارسيل بروست , رواية " البحث عن الزمن الضائع ", فضلاً عن إجادته اللغة الإنجليزية ..

فالقراءة والكتابة والتمدرس عنوان بارز من إيقاعات الحياة اليومية للمبدعين , يقول الروائي المغربي محمد شكري , صاحب رواية "الخـبز الحافـي " ,

أكتب لأنظف نفسي من شهواتها ... ولو أنني لم أكتب لكنت الآن ميتاً أو عجوزاً بشكل قبيح , أو مجنوناً لأن الجنون يأتي أغلبه عن عبقرية . فالكتابة ومعها القراءة أنقذاني من الانتحار , أو التدمير الذاتي لنفسي [٢٢] .

وتقول الكاتبة المصرية نوال السعداوي :

أكتب لأن الكتابة هي الهواء الذي يدخل إلى صدري , فيبقيني على قيـد الحياة . أكتب لأن الكتابة هي لـذتي الكبرى ومتعتـي القصـوى[٢٣] .

ومن يقرأ يشعر بعطش دائم للقراءة وتتراكم لديه المعارف والصور والتخيلات وتتجدد الأفكار وتنجلي الغشاوات الفكرية والروحية وينفجر ينبوع الإبداع فيكتب ويكتب ويعبر عن خلجات نفسه عن تصالحه وتخاصمه مع العالم وعن استيائه من البشر , على الطريقة التي عبر بها الروائي العالمي التركي أورهان ما بوق في حفل تسلمه جائزة نوبل للآداب عام ٢٠٠٦ م , حيث يقول :

أكتب لأني مستاء منكم جميعاً ومستاء من العالم كله . أكتب لأنه يحلو لي أن أنزوي في غرفة ما طوال النهار . أكتب لأني لا أقدر على تحمل الواقع إلا بتغييره. أكتب كي يعرف العالم أجمع أي نوع من الحياة عشناه ونعيشه الآن , أنا والآخرون .. أكتب لأني أعشق رائحة الورق والمداد . أكتب لأني أؤمن بالأدب وبفن الرواية قبل كل شيء . أكتب لأن الكتابة عادة وشغف .. أكتب مخافة أن يلفني النسيان . أكتب لأني أستلذ الشهرة والنفع اللذين تجلبهما لي الكتابة . أكتب كي أكون وحدي . أكتب آملاً أن أفهم لماذا أنا مستاء منكم ومن العالم إلى هذا الحد . أكتب لأنه يطيب لي أن يقرأني الناس . أكتب وأنا أقول في سري : لابد لي من أن أنهي هذه الرواية وهذه الصفحة التي بدأتها . أكتب وأنا أردد : هذا ما ينتظره الناس مني . أكتب لأني أؤمن مثل كل طفل بخلود المكتبات والموضع الذي ستحتله كتبي فيها . أكتب لأن الحياة والعالم وكل ما في الوجود جميل ومدهش على نحو لا يصدق . أكتب لأنه من الممتع التعبير بالكلمات عن بهاء الحياة وغناها . أكتب لا لكي أحكي قصصاً بل لكي أصوغها . أكتب لكي أتخلص من الشعور بالعجز عن الوصول إلى الذي أصبو إليه مثلما يحدث في الأحلام .أكتب لأني لا أستطيع أن أكون سعيداً مهما فعلت . أكتب لكي أكون سعيداً (٢٤) .

وللقراءة فنون وطقوس ولكل مبدع طريقته الخاصة في القراءة فقد يختلف المبدعون في طقوس وعادات القراءة , ولكنهم يلتقون في نقطة الشغف بالقراءة واكتشاف دهاليز الجهل ومحيطات الظلام عبر القراءة المتأنية والفاحصة .

فالروائي العالمي المعروف نجيب محفوظ كان يقول :

... من كل كاتب كبير يكفي قراءة عمل واحد ... وعندما كان يتأهب لقراءة عمل كبير , كان يقول : عندي شغل . وفي فترة الاستعداد لكتابة رواية جديدة يردد : عندي شغل . وكلمة الشغل تشير إلى عبقرية المجهود (٢٥) .

والروائي العالمي باولو كويلو أُدخل إلى المصحة العقلية ثلاث مرات من كثرة القراءة والكتابة والتأملات , وسُجن ثلاث مرات, حيث قال أن :

والدي كان يعتقد بأنني مجنون لأنني كنت أريد أن أكون كاتباً (٢٦) .

والشاعر محمد الماغوط – عندما كان يقرأ ويكتب ينسى نفسه ومن حوله وينزع ملابسه ولا يبقي إلا على سرواله الداخلي (٢٧) .

وفي مقالة شائقة للأستاذ / يحـي البطاط يشير : أن الأمريكي هوارد بيرج يعد أسرع قارئ في العالم , حيث يستطيع قراءة ٨٠ صفحة في الدقيقة ... , وأن ينهي كتاباً من ٤٠٠ صفحة في ظرف ١٠ دقائق .

يرى الروائي الإنكليزي آلان سيليتو أن أفضل مناسبة لقراءة قصة مكتوبة بأسلوب رشيق شائق , هي عندما يكون المرء مسافراً في قطار . فيما يرى هنري ميللر أن أفضل قراءته حدثت في دورة المياه .. بينما كتب شيللي : " تعودت أن أتعرى وأن أجلس على صخرة جرداء لأقرأ هيرودوتس إلى أن يتوقف العرق عن التصبب " .

قراء آخرون لا يهمهم أين يقرؤون بقدر اهتمامهم بوقت القراءة , فثمة قراء يفضلونها صباحاً , ومعظمهم يفضل الليل عندما ينام الجميع ويصفو المكان من الضوضاء . وعلمت أن هناك من يفضل القراءة في المطبخ , أو في الحمام , أو تحت شجرة وارفة الظلال في حديقة عامة . ولكن النصيحة التي يوجهها المختصون أن يتم اختيار وقت القراءة عندما يكون الذهن في حالات الصفاء واليقظة (٢٨).

وأتذكر جيداً عندما كنت صبياً , كنت أرى أبي يحزم كتبه وأوراقه ويتأبطها متجهاً صوب البحر , حيث كان يجلس على تلة صغيرة يطل منها على بحر حقات (كريتر – عدن), وينثر صحفه وكتبه ومجلاته على الأرض ويتسمر فوق تلة بركانية يقرأ ويتأمل ويسافر بعقله وروحه في غابات وبحار ومحيطات الكتب , ثم يتوقف ما بين الفينة والأخرى في فسحة ذهنية يتذكر ما قرأ ويعلق بقلمه على هوامش الأوراق , ويبرز ما فيها من معلومات وأفكار ومعارف .

فثمة أصدقاء ينقشون في قلب الذاكرة صوراً لا تنسى , وإن نسيت لا أنسى أحد الأصدقاء , الذي كان يذهب إلى الحمام ولا يخرج منه إلا بشق الأنفس , حيث يقوم بمطالعة الجرائد والمجلات والكتب ويجد سكينة روحية في القراءة في دورة المياه .

أما الروائي العربي عبد الرحمن منيف له طريقة خاصة :

بقراءة الكتب , لقد كان يتناول كتاباً بعد أن يختاره على اسم الكاتب وتراثه أو الموضوع وأهميته بالنسبة له أو للآخرين , وفي جميع المجالات من فكر وسياسة وأدب ومذكرات وتاريخ ... تبدأ طريقة القراءة التي لها أيضاً ظروفها وتقنياتها .

فالقراءة ليست للتسلية وتمضية الوقت إنه حالة جادة من التيقظ والتعلم والمعرفة , إضافة للدهشة والتقدير لإمكانية الكاتب , فكثيراً ما يتوقف عن القراءة وفي يده الكتاب متسائلاً ومعجباً بأسلوبه أو بمادته أو بمعالجته للموضوع ويعود مسرعاً للاستمرار بشغف ونهم , هذا إذا حاز إعجابه , أو حالة من النرفزة والانزعاج ,

لغير ذلك , فهو برأيه أن الكتب صنفان :" الكتب الرديئة جداً والعظيمة جداً تتميزان بصفة مشتركة : أنك لا تنتهي منها حتى يتملكك غضب لا تستطيع مقاومته . أن تبعدها , أن تدمرها . هذا ما يحس به الإنسان , ولكن سبب الإحساس مختلف . الكتب الرديئة تريد أن تدمرها , فأنت تريد أن تدمر هذا الأثر الملعون الذي يعلق بجدران الشرايين , ويترك في النفس ألماً وعذاباً " .

أما الملاحظة الأخرى : هي تناول القلم والدفتر , ليخط ملاحظاته بعد انتهائه من القراءة , ولم يكن يقصد النقد أو النشر , وإنما ملاحظات له وحده .

هذه الكتابات الأولية لم تكن دراسات نقدية بحثــه , وإنما حتى لا يمر الكتاب مرور الكرام , ليحفر في ذاكرته لوقت طويل , يستمتع به , ويحدث الأصدقاء وكثيراً ما يصبح هذا الكتاب , أو ذاك ,حديث المجموعة كلها , وأحيانا كثيرة ينتقل من يـد ليـد ليستقر بعيداً , ويفقد من المكتبة في كثير من الحالات [٢٩] .

فلا نحتاج إلى ذكاء عظيم لتبيان أهمية القراءة للمبدعين وعامة الناس .

فلكي نخلع جلدة التخلف ونسير بخطى ثابتة صـوب النور وإبداعات الفكر واشراقات الروح لابـد من القراءة , لابـد من خلق علاقة ألفة مع الكتاب , فالكتاب صديق من الطراز الأول .

ولقد قال الشاعر المتنبي :

أعـز مكان في الـدُنـى سرج سابح   وخير جليس في الزمان كتاب

٥- الفقـــر الثقــافـــي

الفقــر لا يعني فقط العيش على شيء من القلة والشظف وانخفاض مستوى المعيشة والتدني المنخفض لدخل الفرد , بل يشمل بمعناه الواسع نسبة حصول الفرد من خدمات الماء والكهرباء والتلفون والصحة والثقافة والتعليم والقراءة والكتابة .

فإنتاج المعارف والمعلومات والكتب العلمية والثقافية والمعرفية تحتل مرتبة متدنية في مجتمعاتنا . ففي ببلوجرافيا الكتاب اليمني في مائة عام يشير الباحث عمر محمد عمر أنه :

منذ بداية القرن الماضي أنتج وألف في المعارف العامة (١٠٨) كتاب ، وفي الفلسفة وعلم النفس (٤١) كتاباً ، والدين والتصوف (٨٣٧) كتاباً ، والعلوم الاجتماعية والإنسانية (١٢٠٨) كتاباً ، وفي اللغة وعلومها بشكل عام (٥٧) كتاباً ، وفي العلوم البحتة بشكلاً عام (٥٦) كتاباً ، وفي العلوم التطبيقية بشكل عام (١٥٨) كتاباً ، ومجموع ما تم فهرسته(٤٠٩٦) ، أما في الفنون بشكل عام فهو (٥٩) كتاباً ، وفي الأدب بشكل عام فإن ما أولف وطبع عبر مائة عام من البحوث والدراسات (١١٩) كتاباً للأطفال ، و (٣٥) كتاباً للشعر ، (٥٥٩) كتاباً في المسرح ، (٨٧) كتاباً في القصة (١١٧) في الرواية [٣١] .

الأرقام والبيانات تحتوي على كم هائل من الشواهد على نكوصنـا :-

- يوجد ١٠٠ مليون أمـي عربي , ثلث سكان الوطن العربي أميين من عـدد ٣٠٠ مليون .

- نصـــف النســاء العربيات أميـات .
- يوجد ١٠ ملاييـن طفل عربي خارج المدرسة .
- وفي اليمن يوجد (٠٠٠و٦٨١و٤) أمي , ٢و٤٩% (لمن تبلغ أعمارهم فوق ١٥ سنة) .
- حصة الفرد اليمني من الإصدارات(٢٠٠٠- ٢٠٠٣ م) ٠٠٧و (سبعة في الألف) .
- متوسط القراءة للمواطن العربي ٦ دقائق في السنة .
- كتاب واحد يصدر سنوياً لكل ربع مليون من السكان العرب .
- في أوروبا ٧ كتب للأوروبي , و ١١ كتاب للأمريكي , وصحيفة لكل قارئ .
- في إسرائيل لكل ٣ أفراد صحيفة واحـدة .
- يقرأ الإسرائيلي ٤٠ كتاباً في السنة , والأوروبي ٣٥ كتاباً في السنة , والقارئ في السنغال يقرأ ٤ كتب في السنة أما في الوطن العربي يصدر كتاباً واحداً لكل ٨٠ قارئ .
- الأســبان يترجمون ١٠٠ ألف كتاب سنوياً .
- اليابانيون يترجمون ٦٠ ألف كتاب سنوياً .
- البولنديون يترجمون ٤٥ ألف كتاب سنوياً .
- أما العرب فيترجمون ٣٣٠ كتاباً سنوياً (٢٢ دولة) .
- في أمريكا طوال ٤ سنوات ترجم من اللغة العربية ١٣ كتاباً .
- ترجم مترجم ألماني اسمه هارتموت فيندرش ٣٥ كتاباً من العربية إلى الألمانية
- خلال ٦ سنوات ترجم تسعة من المترجمين الأوروبيين ٥٠ كتاباً من اللغة العربية .

وحسب تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٣م :

" - أصدرت البلدان العربية عام ١٩٩١م , ٥٦٠٠ كتاب بينما أصدرت بلدان أمريكا الشمالية ١٠٢ ألف كتاب في نفس العام .

- الإنتاج العربي في مجال الكتاب يشكل ١و١ % من الإنتاج العالمي , رغم أن العرب يشكلون ٥ % من سكان العالم ."
- لدينا في المنطقة العربية ٤٨٢قناة فضائية , لا تستخدم الاستخدام السليم لنهضة العقل والعلم والمعرفة والقيم والمعارف , ١٩ % من هذه القنوات دينية , ١٨ % مخصصة للأغاني , ٨و٤ % مكرسة للثقافة تنتج برامجاً ثقافية .
- المستخدمون للانترنت في العالم ٤٠٠ مليون شخص .
- المستخدمون للانترنت في الوطن العربي ٦و٠ بالمئة .
- المستخدمون للانترنت في اليمن يقدر بـ ٥ لكل ألف شخص .

(وأغلب المستخدمين للانترنت لدينا من أجل الدردشة ولسماع الأغاني وللبحث عن اللذة الفاخرة وللدخول في مواقع غير محتشمة) .

* الاستثمار في البحث العلمي في الوطن العربي ٥و٠ % .

ويشير تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٢ إلى أن :

" الإنفاق العربي على البحث العلمي عام ١٩٩٦م , بلغ ١٤و٠ % من إجمالي الناتج الإجمالي , مقابل ٥٣و٢ %لإسرائيل , ٩و٢ % لليابان , ٦٢و١ % لكوبا ... وأن الناتج الإجمالي لكل الأقطار العربية ٥٣١ مليار دولار أمريكي ,

أي أقل من دخل أسبانيا البالغ ٥ و ٥٩٥ مليار دولار . "

- الدراسات الاقتصادية تؤكد أن الرأسمال البشري يساهم في النمو بما لا يقل عن ٦٤ % . بينما سيل هجـرات الكفاءات العلميــة والثقافيــة متدفقة من الوطن العـــربي .
- فـفي عام ٢٠٠٠م هاجر ٣٦ ألف عالم عربي إلى أوروبا وأمريكا . وهجرة العقول العربية تكلف البلدان العربية سنوياً ٢٠٠ مليار دولار .
- المجتمعات العربية تخلق عالماً واحداً في الألف , بينما المجتمعات الأمريكية والإسرائيلية وسنغافورة وهونج كونج واليابان تخلق ٢٢ عالماً في الألف .

فبيئتنا الاجتماعية طاردة للعلم والمعرفة والتمدرس ، وأنظمتنا الاجتماعية خشنة ومتصلبة غير مكترثة بالرأسمال البشري ، فثمة عقول نابضة تيبست أو ماتت أو هاجرت إلى أماكن قصية بحثاً عن بيئة حاضنة للإنتاج العلمي والثقافي والمعرفي .

ولا حاجة بي إلى القول إن المؤسسات العلمية والثقافية العربية بوجه عام على كثرتها لا زالت قابعة تحت مظلة التيبس العلمي والفكري ، ولا زالت أساليب الإملاء والتلقين والحفظ مهيمنة على الفضاء العلمي والأكاديمي .

يقول عالم التربية الهندي **كريشنا مورتي** :

إن كامل تنشئتنا وتعليمنا قد جعل منا كائنات خائفة من أن تكون مختلفة عن جيرانها ، خائفة من أن تفكر بشكل مغاير للأفكار المؤسسية في المجتمع ، تحترم بزيف السلطة والعادات والتقاليد [٣٢] .

فلا يمكن للإنسان الخائف والمقموع والمتردد ضعيف الثقة بالنفس وبقدراته ومواهبه إن ينتج علماً ومعرفة وثقافة رصينة ، لأن الرهبة والذعر تشل ملكة إبداعه وتجعله مشتت الذهن مضطرب الأحاسيس عاجزاً عن العطاء يقف فوق رمال متحركة تضربه أعاصير الغربة والتوحش بحيث يتحول إلى كائن مسربل بالشك والضباب يتحطم وتذبل شتلات معارفه وإبداعاته .

فثمة إهمال واضح للإنسان في مجتمعاتنا والذي يشكل الركيزة الأساسية للتنمية ويتساوق مع هذا الإهمال تدهور مريع لمستويات التعليم .

فمثلاً يبلغ حجم الإنفاق على الفرد في إسرائيل في مجال التعليم حوالي ١٢٠٠ دولار ، في حين أنه في العالم العربي يبلغ حوالي ١١٠ دولار في العام ، علماً أن الإحصاءات تؤكد وجود نسبة أمية تعادل ٤٠% في العالم العربي . أما حصة الفرد الإسرائيلي من الإنفاق على البحث العلمي فتبلغ حوالي ٥٠٠ دولار في العام ، علماً أن نسبة الإنفاق على البحث والتطوير العلمي في إسرائيل تبلغ ٥و٢% من ناتجها السنوي الذي يقدر بحوالي ١٥٠ بليون دولار . في المقابل فإن حصة الإنفاق على الفرد في العالم العربي في مجال البحث والتطوير لا تزيد عن ٨ دولارات في العام...

وبحسب بحث موضوعه ((ميزان الثروة الفكرية)) ، يتبين أن عدد المهندسين في إسرائيل هو الأعلى في العالم : ١٣٥ مهندساً لكل عشرة آلاف عامل ، في حين أن الولايات المتحدة تقع في المكان الثاني ٧٠ مهندساً ، ثم اليابان ٦٥مهندساً ، وهولندا ٥٣ مهندساً ، وسويسرا ٣٨ مهندساً ... وبحسب بعض التصنيفات ، فإن إسرائيل تقع في الترتيب الـ١١ في العالم بالنسبة لعدد الاختراعات المسجلة في الولايات المتحدة[٣٣]
.

وليس من قبيل التربص والتصيد للأخطاء القول بأنه شاعت في الفترة الأخيرة في مجتمعاتنا ما أصطلح تسميته بـ ((**ثقافة الحجارة**)) ، والتي يقصد بها الاعتناء بالمباني والعمارات الفخمة مع إهمال فاحش للقدرات والكفاءات العلمية وهو ما يؤدي إلى قحط معرفي وثقافي ، فلا بد من الاهتمام بالجودة الشاملة للتعليم لأن :

رداءة التعليم العام والجامعي – على حد تعبير الأستاذ عبد الرحمن الراشد – هي سر التخلف التنموي الذي لا يرفعه بناء مطارات حديثة ، أو طرق سريعة ، أو مصانع هائلة ، أو أسواق باهرة ، أو بيوت فاخرة .

فالأرقام والمعطيات السابقة الذكـر تدلل أن لدينا فقـراً ثقافياً مدقعاً وأن ثمة هـوة عظيمة تفصلنا عن المعرفة وأن عدم القراءة تؤدي إلى عتمة حالكة واغتراب عن حضارة العصر . إننـا نعاني من مرضين مزمنين في مجتمعاتنا : الأميـة الأبجديـة والأميـة الثقافيـة , فمن لم تضربه فيروسات الأمية الأبجدية , تضربه فيروسات الأمية الثقافية .

فالإنسان في أوطاننـا مكبل بقيود رمزية ومادية , إذا فلت من سلطات الرقابة والقمع والتلصص , لا يفلت من سلطة العادات والتقاليد القامعة للعـقول النيـرة والتفكير التحليلي الإبداعي الناقد والثقافة العقلية الرفيعة .

فعادة التدمير والإحباط وقتل الملكات الفكرية والعلمـية والإبداعـية في البيئات المتحجرة والمتصدعة , عادة شائعة تبالغ في التسييـس المتعسف لكل شيء وتساعد على انحدار مستويات العلم والمعرفة والحس التأملي والتفكـير الإبداعي وتضيف جرعات مكثفة من المرارة والفشل والتدمير الأهوج لمصابيح العقل لمد شبكة الخوف والرهبة واليأس والجهل والأوهام للعزوف عن القراءة والكتابة والمعرفة والعلم .

٦- القــراءة والتنشئــة الاجتماعيــة :-

التنشئة الاجتماعية تلعب دوراً رئيسياً في دفع الناشئة للقراءة وحب الاستطلاع والتأمل والنقـد والتحليل وتنمية الذخيرة اللغوية والمهارات التعبيرية والتذوقية والجمالية والمعرفية .

إننـا نعيش اليوم في محنة حقيقية ,حيث تتجه أبصار الناشئة صوب ثقافة التسلية مع إهمال حاد للثقافة التي تغذي الروح والعقل بأطباق شهية من العلوم والمعارف .

فالتلفزات والقنوات الفضائية سلبت ألباب الناشئة , فيقضون سحابة أيامهم في مشاهدة القنوات الفضائية , والقسط الأكبر منهم يعزفون كلية عن قراءة الكتب والمجلات , حيث تشير : الدراسات الميدانية أن الطفل العربي يقضي في المتوسط ٣٣ ساعة أسبوعياً أمام التلفزيون ... وهي أعلى معدل في العالم قياسياً إلى أن الطفل الفرنسي يشاهد التلفزيون ١٦ ساعة أسبوعياً [٣٤]. وفي دراسة شائقة للباحث خالد جاويش , يومئ إلى أن الطفل يقضي في المدرسة منـذُ التحاقه بالروضة إلى أن يتخرج من المرحلة الثانوية حوالي ١٣٠٠٠ساعة , بينما يقضي خلال الفترة الزمنية نفسها حوالي ١٨٠٠٠ساعة أمام شاشة التلفزيون [٣٥] .

ونحن في كنـــف الحاضر لابـد من لفـت انتباه الناشئة إلى أهمية القراءة وتشجيعهم على المطالعة ومساعدتهم في انتخاب الكتب والمجلات المناسبة ومشاركتهم في القراءة والنقاش ومواكبتهم في زيارة المكتبات ومساندتهم حسـياً ووجدانياً ولو بالطبطبات والكلمات الناعمة .

فكل الكتاب والعلماء والوجوه الثقافية منـذُ باكورة حياتهم كانوا على علاقة حميمة بالكتاب واشتهروا بشغفهم للقراءة .

وفي هذا السياق يقول الكاتب والشاعر المصري أحمد الشهاوي :
وجـدت منـذُ حداثة سنـي من يوجهني إلى القراءة (أبي وأخي محمد خصوصاً) , فإن هناك أشياء عديدة عن القراءة اكتشفتها مع كل يوم يمر .
ولا أحد ينتظر من القراءة نفعاً مادياً سوى نشدان المعرفة , المعرفة الخلاقة التي تقود إلى الابتكار والخلق والتجديد والتجريب والبحث وتهذيب السلوك .
ومـن يقرأ بسبب هدف مادي يحصل عليه في النهاية , سيفقـد المتعـة , لأننا نقرأ لنفـكر , لا لنكسـب أو نفوز أو نحرز انتصاراً ما من أي نوع . وعادة الخلاقون يتحاشون " القراءة المادية " , لأن طريقها مسـدود , حيث يصير فيها الكتاب ليس رفيقاً أو صديقاً , وإنما عبء ينبغي التخلص منه بعد ما تحقق أغراضنا . ومن هنا ينبغي أن يتداخل الاثنان معاً القارئ والكتاب , كل يحاول قراءة الآخر , والتحاور معه والوصول إلى المعرفة ..... .لا توجد نفسٌ نقيـة دون قـراءة [٣٦] .
فالتنشئة الاجتماعية تحول الطفل من كائن غريزي إلى كائن اجتماعي عاقل , يتشبع بعادات وتقاليد وثقافة المجتمع ويستوعب الحياة الاجتماعية والنظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية .
وتهدف التنشئة الاجتماعية حسـب ما يشـير العلماء إلى :-
١- اكتساب الثقافة , ٢- تكامل الشخصية , ٣- التكيف مع البيئـــة .
وتخضـع التنشئة الاجتماعية لعدد كبير من المتغيرات والظروف التي تحيط بالأسرة والأطفال , منها : مستوى التحصيل العلمي للأبوين , سكن الأسرة ,
الانتماء الاجتماعي للأبوين , المنطقة الجغرافية , عدد أفراد الأسرة ,دخل الأسرة , العامـل الوراثي , جماعـة الأقران (الأصدقاء) ....

ويؤثر الوضع المادي للأسرة تأثيراً كبيراً في مستوى التنشئة الاجتماعيـــة للأطفال,وذلك في مستويات عديدة هي :مستوى النمو الجسدي , الذكاء ,النجاح المدرسي , أوضاع التكيـــف ....

ويتجـــدد العامـــل الثقافي في الأسرة , بمستوى تحصيل الأبوين العلمي , ومستوى الاستهلاك الثقافي الذي يتمثل في عدد الساعات التي يقضيها الأبوان في قراءة الكتب والمجلات ونوع المواد المقرؤة [٣٧] .

وتنمية ملكة القراءة والتذوق الفني والجمالي والموسيقي على همزة وصل قوية بالموهبة والذكاء العاطفي والحسي وبمؤسسات التنشئة الاجتماعية , الأسرة , المدرسة , وسائل الإعلام , (الإذاعة , التلفزيون , الصحف , المجلات , الكتب , المكتبات , القنوات الفضائية) .

فتفشي الأمية بطابعها الأبجدي والثقافي وركـــة تأثير مؤسسات التعليم والثقافة والتنوير وترجرج دور الأسرة التربوي وشيوع ثقافة التسلية والدردشة والفهلوة من المسببات التي أدت إلى عزوف أغلبية الشباب عن القراءة .

وتوصلت بعض الدراسات أن البيئة العربية تعـد عاملاً كابحاً لذكاء الطفل ونموأه الثقافي والمعرفي والنفسي والإبداعي , ويأتي على رأس هذا الاتجاه عالم الاجتماع العربي د. هشام شرابي , د. حليم بركات , لأنهما يعتقدان أن البيئة العربية تتصـف بـــ : ١- المحافظة الزائدة , ٢- التسلطية , ٣- ضعف هامش الحرية والاستقلال فلكـــي يتحول الطفل العربي إلى مبدع وذكي يحب القراءة والدرس مرهون ذلك بعدة عـــوامـــل حسب ما تؤكد عليه الدراسات العلميـــــــة :

١- حـــب الاستطلاع , ٢- المثابرة , ٣- التفاعل الاجتماعي , ٤- الحساسية المرهفـــة , ٥- نزعـــة الاستقلال , ٦- الجرأة والمغامرة ٧- الدافعيـــــة , ٨- التشجيع والمكافأة .

فالوسط الاجتماعي المتنور المشجع لعملية الإبداع والقراءة والدرس يعد من المؤثرات الضرورية للدفع بالناشئة للقراءة والعكس صحيح .

خرجت دراسة لنداثوميسون بنتيجة : أن الأطفال الذين ينعمون بنظام مساند للقراءة يقرؤون عادة أكثر من أولئك الذين يفتقرون لمثل هذا النظام , كما أن لتدريب الوالدين وغيرهم على الطرق المناسبة لمشاركة فن القراءة مع الأطفال له أثراً في تعزيز القراءة لدى الأطفال [٣٨] .

فالأسرة التي لا تكترث بتعليم الطفل القراءة ولا تأخذ بيده صوب النهضة العقلية والوجدانية , تترك بصمات سلبية على حياة الطفل الثقافية , فينتقل الطفل إلى المدرسة , وتترافق معه عادة عدم الاهتمام بالقراءة ولا يقرأ حتى دروس المدرسة إلا عندما يحين موسم الامتحانات الفصلية , ومن ثم تنتقل هذه العادة السيئة إلى الجامعة.

لقد أندهش الأديب والمفكر والناقد والمترجم عبد الواحد لؤلؤة من عدم اكتراث طلاب الجامعات بالقراءة , حيث قال :

قبل سنوات كنت أدرس في جامعة بعينها ... فسألت الطلبة أثناء المحاضرة " ما آخر رواية قرأتموها ؟" .. ساد الصمت في القاعة .. وبعدها سمعت صوتاً خجولاً يقول أنا يا أستاذ " أعرف رواية روبنسن كروزو " من أفلام الكارتون بالتلفزيون [٣٩] .

فالقحط الثقافي والمعرفي الناتج عن إهمال القراءة والتمسك الحرفي بمفردات الإملاء والحفظ والتلقين في العملية التدريسية قد ضرب العملية التعليمية في الصميم وسربلته بالسوداوية والحزن العميق .

يقول الدكتور عبد الكريم الأشتر : أن ثمة قانوناً غير مكتوب في جميع كليات الجامعات العربية ينص أن الأسئلة تكون من الكتاب الجامعي المقرر .. لهذا نراهم يحتجون عندما يأتيهم سؤال من خارج الكتاب المقرر [٤٠] . فمجاميع معتبرة من الطلاب لا يأتون إلى الجامعة حباً في العلم والمعرفة والقراءة والاطلاع إنما للحصول على الشهادة الجامعية بأي ثمـن وبأي طريقة سهلة تؤدي الغرض المرجو.

في دراسة شائقة أعـدها أ.د. عبد الجليل التميمي شملت : عينة مكونة من (٨٠٠) طالب وطالبة في إحدى الجامعات العربية , وهدفت الدراسة إلى مسح وتحليل جميع الأنشطة التي يقومون بها ويسجلونها خلال أسبوع واحد ... وقـد أظهرت نتائج البحث وفقاً لتدرج نسب الأنشطة من أعلاها إلى أدناها ما يأتي :-

١- ٣و٢٨ % في النوم .
٢- ٣٨و١٣ % في الدوام .
٣- ٨٥و١٢ % في مشاهدة التلفزيون والسينما وسماع الراديو والمسجل .
٤- ٧٥و٧ % في الذهاب والإياب .
٥- ٥٦و٤ % في أروقـــة الجامعـــة .
٦- ٣٨و٤ % في تحضير الدروس .
٧- ٧٧و٤ % في الأعمال الخاصة .
٨- ٩٣و٣ % في نزهة أو حفـــلة .
٩- ٩٨و٢ % في أروقة ونادي الكلية .
١٠- ٥٦و٢ % في النـــهوض .
١١- ١٥و٢ % مع الأصدقاء والعـــائلة .

١٢- ١٢و٢ % في تناول العشاء .

١٣- ٥٧و١ % في تناول الفطور .

١٤- ١٤و١ % في تناول الغذاء .

١٥- ٠٤و١ % في المطالعة الخارجية .

١٦- ٠١و١ % في الاستراحة دون عمل .

١٧- ٨٢و٠ % في الألعاب الرياضية .

١٨- ٩٦و٠ % في الزيارات الخاصة .

١٩- ٦٦و٠ % في التجوال .

٢٠- ٦٥و٠ % في التسلية .

٢١- ٥٦و٠ % في السفريات .

٢٢- ٤٨و٠ % في ارتداء الملابس .

٢٣- ٢٣و٠ % في الشئـــون الدينية .

٢٤- ٢٣و٠ % لم تذكـــر .

وفي ضوء النتائج المذكورة , نلاحـظ بأن وقت النـــوم يستغرق حوالي ثلث اليوم الواحد , وأن مجموع أزمنة الأنشطة الاستجمامية التي تضم (مشاهدة التلفزيون والفيـديو والسينما وسماع الراديو والمسجل وفي أروقة الكلية ومع الأصدقاء , وفي الاستراحة والزيارات الخاصة والتسلية والتجوال والسفرات واللعب) تستـــغرق مجتمعة حوالي ٣٠ % من اليوم الواحد .

ومن المؤسف أن نســـبة ما يقضيـه الطلبة في تحضير الدروس والمطالعة كانت تمثل نسبة ٨و٥ % من ساعات اليوم الواحـــد .. (٤١) .

نحتاج إلـى النور والضياء والمعارف والمعلومات نحتاج إلى الغنى الثقافي والمعرفي , إن المجتمع الفقير الذي لا يقرأ يتضاعف لديه الفقر , ويصبح مسربلاً بعتمة الفقر المادي والمعنوي , وتزداد الأمور قتامة في حياته لأنه فاقد للبصيرة والمعرفة التي تضيء دهاليز الروح وتنير مضائق الأذهان .

إذا كان المعلمون لا يقرؤون ولا يمارسون القراءة كطقس له حضوره البهي في حياتهم فلن يقرأ الطلاب , وإذا كان المجتمع ينساق وراء ثقافة قوامها الاستهلاك السريع , حتى في التعليم والتأهيل , فإن الكتاب الذي يتطلب الصبر والتأمل والاستمتاع بالعزلة والصمت سيعاني الغربة في عالم يريد الحصول على كل شيء بأسرع الطرق وأيســرها .. (٤٢) .

فالقراءة ماء وخبز وهـواء للجميع فهي الينبوع الذي يغذي عقل ووجدان الإنسان بالمعلومات والمعارف , وهي مسألة ملحاحة للمبدع في شتى صنوف الإبداع :

ساعتان على الأقل يومياً , مهما كانت الضغوط , لأننـــي مازلت أعتقد أن القراءة هي العمود الفقري لأي مبدع , وكلما ازداد كـم قراءاتك اكتشفت أنك أضعـت وقتاً من حياتك كان يجب أن تستغله في القـراءة (٤٣) .

يقول عبد العزيز المقالح :

إن الذين يعادون الكتاب ولا يهتمون به هم أولئك الذين لم يعتادوه منذُ الصـغر , ولم يقتربوا منه في الكبر إلا على شكل مقررات دراسية , لذلك فما يكادون ينتهون من آخر امتحان حتى تجدهم يرمون بالكتاب إلى اقرب سلة مهملات ... وبعد أن يتخرجوا من المـدرسة والجامعة لا يعودون إلى الكتاب الذي يذكرهم بالمقررات الصعبة , وبالامتحانات الأصعب , ولهذا لا توجد علاقة ثنائية محببة بينهم وبين الكتاب (٤٤) .

حاولت مدرسة الطب النفسي لجامعة نيوإنجلاند بأستراليا رصـد الوسائل التي تساعد على تحبيب الأطفال في القراءة وأوصت بالآتـي :

١- القراءة مساءً كل يوم للأطفال قبل النوم , حتى أيام الإجازات .

٢- التعليق بصورة إيجابية على موضوع القراءة .

٣- تنوع القراءة يومياً .

٤- تعليق حروف اللغة على جدران وأثاث حجرة الطفل .

٥- تشجيع الطفل على القراءة , وإقامة حفلة له كلما انتهى من قراءة عشرة كتب.

٦- مـدح حب الطالب أو الطفل للقراءة دائماً , ويشرح فوائد القراءة ببساطة .

٧- مساعدة الطفل على تسجيل أسماء الكتب التي يقرؤها , واصطحابه إلى المكتبة مرة أو مرتين في الأسبوع .

٨- الاستمرار في القراءة معه لفترات بسيطة حتى بعد أن يعتاد القراءة بنفسه مع مناقشة ما يقـرأ معه .

٩- دفع الطفل إلى اختيار الكتب , وترشيح بعضها له , حتى يكشف عن مواهبه وميوله منـذُ سـن مبكـر [٤٥] .

وتشير الدراسات المتخصصـــة بشئون الطفل إلى أن ثمة : أسباب أساسية تجذب الأطفال وتشجعهم على القراءة , منها أسباب تتعلق بمضمون المقرؤ , وأسباب تتعلق بشكل الكتاب وإخراجه , ولأن القراءة تخضع لعملية التعلم , فإنه يمكن التحكم بها والسيطرة عليها , والتحكم يجب أن يؤدي إلى تعلم الطفل القراءة بطريقة تسهم في توافقه الشخصي والاجتماعي , وعدم التوافق يظهر في ضعف الوازع إلى الإقبال على القراءة وتراكم الأخطاء اللغوية والنحوية , وصعوبة انتقال الطفل من مرحلة تعلم القراءة إلى مرحلة استخدام القراءة للتعلم , ويمكن أن تسهم مؤسسات عديدة في تعليم الطفل القراءة , وتأتي على رأس هذه المؤسسات الأسرة , المدرسة , ووسائل الإعلام المختلفة . لذلك يجب أن تقوم الأم بتكريس وقت كاف للقراءة لطفلها في سنواته الأولى , ويقوم المعلم بتشجيع الصغار على الذهاب إلى المكتبة للقراءة , وأن تشجع وسائل الإعلام على نشر ثقافة القراءة بين أفراد المجتمع [٤٦] .

جملة يمكن القول أن هناك عوامل متلاحمة قـد أدت إلى

عزوف الشـباب عــــــن القراءة

أبــرزهــا :

١-عوامل أســرية

حيث أن الأسرة الأمية وغير المثقفة تترك بصمة سلبية في عقل ووجـدان الأطفال . فالأطفال يقلدون الكبار في القراءة والكتابة وفي السلوكيات الصالحة والطالحة . فالأسرة التي تهتم بالقراءة وتساعد أطفالها على القراءة وتشجعهم وتحفزهم على العلم والمعرفة تترك أثراً حميـداً في أفئدتهم يصـب لصالح الاهتمام بالكتاب والدرس والمطالعة .

فشيوع الأمية في المجتمع والتي يقدر حجمها بـ٥٠% من الأميين في المجتمع قد ساعد ذلك على تفشي ظاهرة عدم الاكتراث بالقراءة ، فضلاً عن أن الأسرة تعاني من مشكلات جمة يضرب كيانها ويعرقل مسألة تنشئة الأطفال تنشئة سليمة ذات بعد ثقافي وتنويري وحضاري ، ومن أبرز المشكلات التي تواجهها الأسرة :-

- استخدام أساليب المعاملة الوالدية غير السوية كالقسوة والحماية الزائدة والتسلط والإهمال والتذبذب في المعاملة مع الأبناء .
- انخفاض مستوى دخل الأسرة .
- انعدام التفاهم والتواصل بين أفراد الأسرة الواحدة .
- تباين المستوى التعليمي والثقافي بين الزوجين .
- تباين المشاعر والانفعالات بين الزوجين .

- تباين الميول والاهتمامات والقيم بين الزوجين .
- التباين في أعمار أحد الزوجين أو كليهما .
- التدخل في حياة الأسرة من جانب الأقارب أو الجيران أو الأصدقاء .
- تعارض الأنماط السلوكية للزوجين حول أساليب تنشئة أطفالهم .
- تفكك الأسرة بسبب الطلاق وضياع الأبناء .
- التكوين النفسي غير السوي لأحد الزوجين أو كليهما .
- تناول أحد الزوجين أو كليهما للمشروبات الروحية المسكرة.
- خروج المرأة إلى العمل لساعات طويلة تاركة أبناءها دون اهتمام ورعاية .
- سوء العلاقة بين الآباء والأبناء .
- سوء المعاملة بين الزوجين .
- عدم التوافق العاطفي والجنسي بين الأبوين .
- عدم الصراحة والوفاء في العلاقات الأسرية .
- عدم إنجاب الأطفال .
- غياب أحد الأبوين أو كليهما لفترة طويلة كالسفر أو السجن أو الموت .
- مصاحبة الأبناء لقرناء السوء وعدم الاهتمام بنصائح الوالدين .
- النزاع على السيادة في الأسرة وصراع الأدوار .
- وجود أطفال معاقين [٤٧] .

ففي كنف الأسرة الصالحة والجو العائلي السوي تنشأ عادة القراءة ، ويزداد نهم الطفل بالقراءة والدرس كلما لاقى تشجيعاً منزلياً للقراءة ، وكلما وجد اهتماماً من قبل الوالدين وأفراد الأسرة ، وبالتالي تصبح القراءة إيقاعاً من إيقاعات حياته اليومية والتي تتحول مع مرور الزمن إلى عادة نجيبة يصعب الفكاك منها .

٢- المـدرســـــة :

المدرسة موقع إشعاعي وتنويري للناشئة تمد التلاميذ بالمعارف والمعلومات وتهذب سلوكهم بطريقة ممنهجة بما يتوأم مع مستواهم العقلي وعمرهم الزمني وبما يتناغم مع

التراكيب النفسية والسيكولوجية للتلاميذ . فهي تقوم بمهمتين رئيسيتين حسب ما يؤكده علماء التربية والنفس ألا وهي : التعلم والتكيف .

ويعتقد التربويون المتحمسون للتربية التقدمية إن على المدرسة أن تهتم بتطوير وعي الطفل بذاته وثقته بنفسه كاهتمامها بتعليمه القراءة والكتابة والحساب وغيرها من العلوم الأكاديمية ، وأن على المعلم أن يهتم بشكل أكبر بمشكلات وصراعات تلاميذه ، والأمور التي تثير قلقهم ، وأن تكون أكثر ديمقراطية وتسامحاً معهم .

أما المربون المتحمسون للتربية التقليدية فيرون أن على المدرسة أن تنشغل بنقل المهارات الأكاديمية الأساسية للتلاميذ ، والتي ستلزمهم عندما يكبرون وينخرطون في المجتمع ، وفي بداية المدرسة الابتدائية يكون التركيز على مهارات القراءة والكتابة والحساب (٤٨) .

والأمر المثير للتقزز والامتعاض هو اختزال مهمة المدرسة اليوم في تلقين بليد للدرس للطلاب , مع عدم الاهتمام بتطوير المواهب والملكات الإبداعية , فلا تشجع أغلب المدارس ولا المدرسين على القراءة والكتابة والدرس خارج المقررات الدراسية , وتتميز الأنشطة اللاصفية بالعشوائية والتلبك وعدم الاتزان ولا تساعد على رفع ملكة التفكير وإثارة القدرات وشحذ الهمم وتطوير المهارات ومن ضمنها مهارة القراءة والكتابة والتعبير , فلابد من :

- تنمية الفضول المعرفي والفكري لدى الأطفال .
- تنمية قدرة الطفل على المبادأة والمبادرة والنظرة النقدية للواقع .
- الابتعاد عن النمطية والقوالب الجامدة , إذ أن هذا هو جوهر الحافز إلى الإبداع [٤٩].

- 3القـنوات الفضـــائيـــة

٢- خطفت القنوات الفضائية أبصار الناشئة صوب ثقافة الصورة , وتقدم وجبات ثقافية تساعد على الإثارة ولا تساعد على نهضة العقل , فمن بين ٤٨٢ قناة فضائية عربية ٨و٤ % مكرسة للهــم الثقافي , فطغت الكلمة والأغنية الهابطة على القنوات الفضائية وتميزت أغلب الأغاني بــ:-

أ- محاكاة غير سليمة للموسيقى الغربية .

ب-طغيان اللهجات المحلية والقطرية , مع ركاكة اللـغة العربية الفصحى .

ج- الخلط غير المبدع ما بين الموسيقى الغربية والعربية .

د- ضـــــعف الخيال الشعري والصورة الشعرية .

هـ -بلادة وتصـــنع بالشعور الفنـي .

و- طغيان الموسيقى الصاخبة والصور غير المحتشمة على حساب الكلمة والأداء الفني المحتشم .

٤ـرتابـة أداء مؤسســات الثقافة وأجهزة الإعلام :

حيث طغت على السـطح الكتب والصحف والمجلات الدعائية وثقافة الصورة الملتبسة على حساب الكتب والمجلات والصحف والمؤسسات والفعاليات الثقافية الجادة .

وأفرزت ضروباً من التشوش الذهني والفكري وأدت إلى الوقوع في مطب الابتذال لأسباب لست حراً في ذكرها . وينبغي أن أسارع في القول أن ثمة مناشط وفعاليات ثقافية ساعدت على ارتفاع منسوب العلم والثقافة والقراءة والنهضة العقلية بمنأى عن تسليع المعرفة والكتاب وثقافة الوصاية والتلـقين وانصهرت في بوتقة المدنية والتحضر وضربت أمثولة في النشاط الثقافي والمدني المستقل عن مؤسسات وأجهزة الدولة وتركت بصمات عزيزة في الفضاء الثقافي العام ، فالمنتديات الثقافية في مدينة عدن في القرن الفارط غرست بذرة التنوير وكسرت قوقعة النمطية الصلدة ، وجاءت متساوقة مع ما شهدته مدينة عدن من تطور مدني وحضاري وانفتاح إنساني شامل على العلم والتكنولوجيا والثقافات والمثاقفة ، وعكست طبيعة التعدد السياسي والاجتماعي والثقافي الراسخ في نسيج هذه المدينة الشامخة والمتسامحة (عدن) ، والتي انصهرت فيها الثقافات المحلية اليمنية وغير اليمنية لتكون نسيجاً ثقافياً واجتماعياً وحضارياً متميزاً له رائحته الخاصة ونكهة لذيذة وشائقة دفعت بعجلة النماء إلى الأمام .

فتأسست الأندية الثقافية والأدبية :-

١. نادي الأدب العربي ١٩٢٥م ، برئاسة الشاعر أحمد فضل القمندان وإدارة محمد علي لقمان (كريتر) .

٢. نادي الإصلاح العربي ١٩٢٩م ، مؤسسه الشاعر محمد عبده غانم (التواهي).

٣. نادي الإصلاح العربي ١٩٣٠م ، مؤسسه أحمد محمد الأصنج (الشيخ عثمان).

٤. نادي الإصلاح العربي ١٩٣٠م ، مؤسسه محمد علي لقمان (كريتر) .

ثم أخذت تتناسل الأندية والجمعيات والمنتديات الثقافية والتنويرية في عدن ولعل أبرزها كما يذكر الدكتور علوي عبدالله طاهر [٥٠] :-

- مخيم أبي الطيب - كريتر ١٩٣٩م .
- كرمة أبي العلأ - التواهي ١٩٤٢م .
- حلقة شوقي - التواهي ١٩٤٢م .
- نادي يعرب بن قحطان - الشيخ عثمان ١٩٤٣م .
- نادي الشباب الثقافي - الشيخ عثمان ١٩٤٧م .
- رابطة الجامعيين العدنيين - كريتر ١٩٤٧م .
- حلقة الملاح التائه - الشيخ عثمان ١٩٥٠م .
- نادي الأدب والفن - الشيخ عثمان ١٩٥١م .
- نادي الشباب الأدبي - الشيخ عثمان ١٩٥١م .
- رابطة شباب عدن - كريتر ١٩٥٣م .
- المنظمة المتحدة للشباب اليمني - الشيخ عثمان ١٩٥٩م .
- الرابطة القومية للكتاب العرب - عدن ١٩٦٢م .
- مؤتمر الخريجين - عدن ١٩٦٢م .

ولا أضيف جديداً إن قلت ، أن هذا المنتديات الثقافية عكست ما يعتمل في غميس المشهد الثقافي من حراك ونماء ثقافي ينور مضائق الأذهان .

دعوني أتوقف على سبيل المثال لا الحصر عند مخيم أبي الطيب المتنبي ، الذي تأسس في ١٦/مارس/١٩٣٩م في كريتر - عدن ، وتميز بمناشط ثقافية وتنويرية تساعد على النهضة العقلية والحضارية :

وكانت أولى هذه الأنشطة تتمثل خصوصاً في المحاضرات الأسبوعية التي كان يحضرها أعضاؤه ، والذين كانوا يتولون في نفس الوقت التداول على إعدادها وإلقائها ...

وكانت شروط العضوية فيه (إلزامه لكل عضو بالمشاركة في إعداد المحاضرات وإلقائها ، وجعل ذلك أحد شروط العضوية فيه ، وإلزامه لكل عضو بالحضور المنتظم)[٥١] .

وأبرز الوجوه الثقافية والتنويرية في مخيم أبي الطيب : محمد علي لقمان ، عبد الرحمن جرجرة ، عيدروس أحمد الحامد ، حسين بيومي ، محسن حسن خليفة ، عبد الرحيم لقمان ، يوسف حسن السعيدي ، هاشم عبد الله ، حامد محمد عبدالله الصافي ، محمود شودري ، جواد محمد شيباني ، حمزة لقمان ، حسن أغبري ، علي محمد لقمان ، علي محمد العماري ، حامد خليفة ، عبد الرزاق فكري ، أحمد حامد الجوهري ، محمود لقمان .

ولعله من المفيد القول ، أن الأستاذ محمد علي لقمان (١٨٨٩-١٩٦٦م) ، ألف كتاب: بماذا تقدم الغربيون (١٩٣٢م) ، كمادة تثقيفية لأعضاء نوادي الإصلاح العربي الإسلامي ، وتبعه كتاب لأحمد سعيد الأصنج : نصيب عدن من الحركة الفكرية الحديثة (١٩٣٤م) ، وكتاب للأستاذ هاشم عبدالله : جزيرة العرب تتهم حكامها (١٩٤٧م) .

وشهدت الحركة الثقافية والأدبية حركة تنوير وعراكات ثقافية وتنويرية عالية الجودة لا تخرج عن نطاق العقلانية والتنوير ما بين الاتجاهات الثقافية بألوانها الطيفية كتلك السجالات التي حدثت مابين : الشيخ محمد بن سالم البيحاني (١٩٠٨ - ١٩٧٢م) ، والشيخ علي محمد باحميش (١٩١٠-١٩٧٧م) ، وبين الأستاذ عبدالله باذيب (١٩٣١-١٩٧٦م) ، والشاعر لطفي جعفر أمان (١٩٢٨م - ١٩٧١م) .

ودارت على صفحات " فتاة الجزيرة " المطارحات النقدية ما بين الشاعر محمد عبده غانم والمثقف محمد أحمد بركات ، وفي مجلة " المستقبل " ما بين الشاعر لطفي جعفر أمان من جهة ، والشيخ البيحاني والشيخ كامل عبدالله صلاح من جهة أخرى حول موضوع (آفاق في الدين والفلسفة والأدب) وعن المعتزلة .

وأمتدت هذه السجالات الأدبية والثقافية حتى منتصف السبعينات من القرن العشرين حيث تواصلت المجادلات النقدية المتنورة ما بين الأستاذ عبد الرحمن فخري والأستاذ زكي بركات عن الواقعية والواقعية الاشتراكية في الأدب والفن [٥٢].

كان للمنتديات الثقافية يد طولى في توطيد مداميك الثقافة والتنوير والنهضة العقلية ونشر قيم المحبة والتسامح والتساكن الاجتماعي وغرس شتلات التنوير .

فالثقافة لا تزدهر إلا في وعاء ثقافي حامل للثقافة ، فلا بد من وجود بيئة ملائمة ومتحضرة ومتمدنة لنشأة وتطور الثقافة والتنوير العقلي .

إن أزمة الكتاب العربي ليس أزمة نشر بل أزمة مضمون . وتكشف أزمة المضمون عن أزمة وعي تاريخي . إذ لا يستطيع العربي كاتباً أو قارئاً ، أن يجيب عن سؤال : في أي مرحلة من التاريخ أنا أعيش ؟ فمن الصعب تشخيص طبيعة المرحلة الراهنة. ثورة مؤيدة أم ثورة مضادة ؟ نهضة أم سقوط ؟ إصلاح أم كبوة ؟ تجديد أم تقليد؟ انفتاح على العالم أم انغلاق على النفس ؟ إرهاصات أم إفلاس ؟ ....

العزوف عن القراءة مثل العزوف عن الانتخابات ومثل العزوف عن المشاركة في الحياة العامة . هناك انسداد تاريخي في الوطن العربي . المياه محجوزة وراء السدود . ومع ذلك توزع المنشورات والبيانات بالآلاف . كما تعددت الكتابات البديلة ، والكتابات تحت الأرض . ومع ذلك تحول القراء إلى مستمعين ومشاهدين لملايين الأشرطة للمغنية الشابة وللفيديو كليب ولكرة القدم وللدعاة الدينيين الجدد صناع الحياة بالحديث عن الجنس والحب والزواج . أزمة الكتاب هي أزمة عصر . وأزمة العصر هي أزمة قيم ، وأزمة القيم ناشئة عن طبيعة المجتمعات في مراحل التحول التاريخي (٥٣)

٥- المحـــيـــط الاجتماعـــي :

أو بعبارة أخرى , البيئة الاجتماعية , ويقصد بها تلك الكائنة خارج نطاق الأسرة والمدرسة من جيران ورفاق الحي والأقارب والنوادي والجمعيات ودور العبادة , وتساعد هذه البيئة – إن كانت صحيحة – الطالب على تشرب وتمثل عادات الجماعة , وامتصاص معاييرها وتقاليدها , وتوفر له الانتماء القوي للمجتمع بمختلف مؤسساته , وتعمل على إشباع حاجاته النفسية , في جو من التفاعل السوي الهادف , وتؤثر البيئات الاجتماعية غير الصحيحة سلباً على النمو بما تقدمه للطفل من نماذج سيئة وفرص الانحراف , وبما تحجبه عنه من فرص لاكتساب المهارات والتدرب على الأدوار الاجتماعية المطلوبة (٥٤).

وبوجه عام فالفضاء الاجتماعي لدينا يحبط عملية القراءة والكتابة والعلم والثقافة , وصار من المعوقات للنهضة الفكرية والعقلية , فالناس منشغلون بلقمة العيش , وآخر ما يفكرون به القراءة , لضيق الوقت ولاهتمامهم بثقافة التسلية والترويح عن النفس . فالمحيط الاجتماعي قاتل للمواهب والملكات الفكرية والإبداعية وخانق لعادة القراءة , فالقسط الأعظم من الناس منشغلون بأمور ذاتية وبهموم يومية فتصرفهم الصوارف عن القراءة والدرس , وربما يكون محل إزورار وسخرية القارئ الباحث عن الحقيقة والعلم والمعرفة من قبل بعض الجهلاء الذين لا يقيمون وزناً للقراءة والعلم والمعرفة ويعتبرون القراءة مضيعة للوقت وأمر لا نحتاج إليه .

فالطفل عندما ينمو في بيئة اجتماعية مشغوفة بالقراءة يقلد الكبار الذين يتركون بصمة عزيزة في عقله ووجدانه بنمط حياتهم وطريقة حديثهم ومنهج تفكيرهم وأسلوب محاوراتهم فيطمح أن يكون مثل هؤلاء أصحاب الحكمة والرأي والمعارف الرصينة فيكرس جـُل وقته للقراءة لرفع منسوب المعرفة والعلم والثقافة ولطرد حلكة الظلام في عقله ووعيه ودهاليز روحــه .

فالجاحظ (٧٧٦ - ٨٦٨ م) , أنكــب على نهل العلم , فاختلف إلى المساجد ومنازل العلماء , وسوق " المربــد " والذي كان مركزاً يلتقي فيه الأدباء والشعراء , وأهل اللغــة ليقيموا فيه ندواتهم ومناقشاتهم , فتلقى العلم على يــد شيوخ وبلغاء اللغة من العرب . وعرف عن الجاحظ عشــقه للقراءة فما كان يدع كتاباً قــط يصل إليه دون أن يتم قراءته , ومما يدل على شغفه بالقراءة , أنه كان يستأجر دكاكين الوراقين ويبيت فيها للإطلاع على ما فيها من كتــب .

ذهب الجاحظ وراء العلم فا نتقل من البصرة إلى بغداد ليتصل بمفكريها , فالتقى مع الأصمعي والأنصاري وأخــذ اللغة عنهما , كما اتصل بالأخفش , وأخــذ عنه النحو , والنظام وأخذ عنه علم الكلام , وأطلع على الثقافة اليونانية من خلال سلموية وحُنين بن اسحق , وارتاد البادية ليأخــذ اللغة والأخبار , وزار الجاحظ كل من دمشق وإنطاكية وذلك من أجل التعمق في الثقافة واللغة .. ويقال أنه توفى بعد سقوط قسم من مكتبته فوق رأسه [٥٥] .

- 6عـوامل نفســية وشــخصية :

ضعـف الدافعية لدى الأفراد للقراءة , فالبعض يعاني من انشطارات نفسية وروحية ومن غرُبة مجتمعية تعيقه عن القراءة والتطلع إلى غــدٍ أفضل .

فحب القراءة والاستطلاع واللهث وراء النتاجات الإبداعية والثقافية والعلمية والمعرفية الجديدة لمعرفتها وقراءتها عملية لا يمكن أن تتشكل في يوم وليلة بل هي عملية نشأت عبر سلسلة طويلة من عمليات التطبع الاجتماعي والثقافي والسيكولوجي للقراءة والتي امتدت شبكتها عبر التنشئة الاجتماعية والتفاعل ما بين الفرد والبيئة المحلية وتكيف الفرد مع الوسط الاجتماعي والثقافي والعلمي والمعرفي والتفاعل الإيجابي مع البيئة الثقافية التي ساعدت على خلق الدافعية للقراءة والدرس والإبداع .

يقول أحــد المبدعين :

لقد كان حبي للقراءة مفتاحاً لتذوق الجمال في المجالات والعلوم المختلفة , فلم يكن الأمر مقتصراً على الأدب , وكان ذلك منــذُ الصغر , فكنت أحــب أن أقرأ كل شيء وكل ما تقع عليه عيناي , من دون أن أحــدد ماذا أقــرأ , فلم أدخل في طور اختيار المقرؤ , إذ كانت القراءة في حــد ذاتها متعة , أشعر معها بالراحة النفسية , وبالإنجاز الكبير كلما أنهيت كتاباً أو بحثاً أو موضوعاً ما أو مقالة معينة , وأمام كثرة الكتب والمجلات والكلام المكتوب , كنت إذا بدأت في قراءة شيء أعرف أنني لا أستطيع التوقف حتى الانتهاء منه , رغم أن شعوراً يصاحبني أحياناً بوجود ما هو أفضل منه , لكن لا أستطيع الفكاك من ذلك لجملة أسباب منها أنني سأشعر بالنقص , وأن هناك عملاً لم أنجزه ,

ووصل معي هذا الشعور إلى تكوين فكرة تتمثل في أنني لن أكون صادقاً مع ذاتي , بل مع الحياة نفسها , فكنت أقرأ كثيراً , وبصورة متواصلة , وفي إطار تلك القراءات التي كانت تأخـذ صفة العشوائية في أحيان عديدة , كانت المفردات تستميلني في بعض الجمل , والأسلوب يأسرني في بعض العبارات , واكتشفت أنني أنجـذب إلى شعرية السياق , والكلمة , في كل ما هو مكتوب , ووجدت مع الزمن أن الأشعار بدأت تأخـذ نصيباً وافراً من الوقت , فيمتعني هذا البيت , وتهزني تلك الصورة , وتدهشني تلك الكلمات (٥٦) .

وفي الإطار ذاته ثمة

أسباب عامة تؤدي لنفور الناس من الكتب

١- سـرعة المـلل وقـلة الصبر وفقـدان الجـلد في المـكث والعـكوف الذي تتطلبه القراءة .

٢- عـدم معرفة قيمـة القراءة .

٣- طول الكتاب أو الموضوع .

٤- الخطأ في الابتداء , فالبـدء بالكتب المتقدمة الأمهات قبل الكتب الميسرة خطأ .

٥- علو أسلوب الكاتب في اللغـة والمضمون .

٦- عدم معرفة المصطلحات المتكررة في الكتاب .

٧- عدم وجود الأقران الذين يحثون ويشجعون أصحابهم على القراءة .

٨- استبدال الغث (المجلات والصحف) بالسمين (الكتب المفيدة) .

٩- عدم الاستشارة في الانتقاء والابتداء , أو استشارة من ليس بأهل .

١٠- ضعف المعرفة بقواعد اللغة العربية ونقصان إدراك الأساليب البلاغية .

١١- الشرود وعدم التركيز .

١٢- دنو الهمـة والرضى بالدون .

١٣- الانشغال بالملهيات والمغريات .

١٤- العكوف على استماع الأشرطة [٥٧].

المقترحـات

١- استحداث جوائز للقراءة في المدرسة والجامعة والمعاهد والكليات والمكتبات ومؤسسات الثقافة لتشجيع العامة على القراءة .

٢- تأسيس هيئة تحت مسمىٍ أصدقاء الكتاب من المهتمين والمشغوفين بالقراءة في المدارس والمؤسسات والمكتبات لخلق علاقة ألفة ما بين الكتاب والناس في الفضاء الاجتماعي العام .

٣- بناء المزيد من المكتبات وبيوت الثقافة في الأحياء السكنية والجامعات والمدارس ومؤسسات العمل والإنتاج وفي المدينة والريف .

٤- تسهيل وصول الكتب والصحف للقارئ بمبالغ رمزية بما في ذلك الكتاب الالكتروني .

٥- تبني مؤسسات التعليم والثقافة طبع كتب المبدعين المحليين والعرب والعالميين وبيعها بأسعار زهيدة .

٦- تشجيع الإبداع العلمي والفني والأدبي والثقافي .

٧- محاربة الأمية الأبجدية والثقافية وتشجيع العامة على القراءة والكتابة واستخدام الحاسوب وشبكة الانترنت .

٨- تفعيل أدوار مـؤسســات الثقافة والتربية والإعلام المدنية والرسمية .

٩- تفعيل أدوار مؤسســات التنشئة الاجتماعية .

١٠- الحرص على نشــر الإبداع الحقيقي الذي يترك بصمة عزيزة في عقل وجدان القارئ .

١١- التركيز على الطابع النوعي للثقافة وعدم اللهث وراء ثقـافة الدعـاية والساندويتشات .
١٢- الاهتمام بالفعاليات والمناشـط الثقـافية والترويج لمعارض الكتب النوعية .
١٣- الاحتفال بيوم سنوي يسمى " يوم القراءة " .
١٤- نشر وتسهيل تداول الكتاب العادي والالكتروني , وتوسيع شبكة الانترنت في المجتمع .
١٥- تكريم الوجوه الثقافية والإبداعية الذين تركوا أثراً لامعاً في خارطة حياتنا الثقافية .
١٦- نشر ثقافة اقتناء الكتب وتلخيصها , واعتماد جوائز لأحسن التلخيصيات .
١٧- الاهتمام بمعارض الكتب السنوية أو الفصلية , وتكريم مؤسسات النشر التي ساهمت في ترويج ونشر الثقافة , مع التأكيـد أن تكون معارض الكتب منفتحة تشمل على تلاوين جمة من المعارف والثقافات التي تغذي الفكر الإنساني بالمعارف , والمحبة والوداد والتسامح .
١٨- تشجيع الترجمة والنشر لتوسيع دائرة القراءة لتفتيق الأذهان وللإطلاع على ثقافة وعلوم الشعوب الأخرى وللاستفادة من التجارب والثقافات الإنسانية الخيرة .

القــراءة هــم لا يبارح عقول وأفئدة القراء فهي البلسم للروح والجسد وهي الرئة التي يتنفس منها القارئ والعادة التي لا يمكن الفكاك منها حتى آخر شهقة في الحياة وهي متعة لا تقــدر بثمن , تجعل القارئ يسافر في كل الأصقاع و يغوص في عالمه الداخلي . والأمنية الثمينة للقارئ اللبيب أن يقرأ كل جديد ومفيــد , وهــذا ما ورد على طرف لسان أحــد المبدعين في عالم القصة عندما قال أتمنــى : أن أتفرغ للكتابة , من دون أية مناصب , أو مسؤوليات , أن أكتشف العالم بالسفر والكتابة , أن أقرأ كل كتاب جديد , أشعر بالحزن حين أنظر إلى ما ينتظرني من كتب , وما أطالعه من عروض إصدارات جديدة , أقول في نفسي إنه سيأتي اليوم الذي سأقرأ فيه ..

خوفي فقط أن يضعف نور العين فأحرم من أهــم لـذة لي في الحياة القراءة [٥٨].

فيجب أن نقرأ ثم نقرأ ثم نقرأ لكي نكتشف جهلنا :

ومثلما لنا أب واحد وأم واحدة وإخوة وأصدقاء وأقرباء قليلون وحميمون , فإن في حياتنا كتباً قليلة علمتنا وغيرتنا منــذُ الصغر , وكونت شخصياتنا وقادتنا إلى طرق رئيسية أو فرعية , حتى لا نتوه في هذا العالم الصاخب .

القراءة تعصمني من العزلة وتحفظني من الهذيان , وتقيني من الوحدة الموحشة , هي رفيقي في السفر , أم روحي , محبوبي الذي أفتقده , وأحــن إليه , وأرقب لقاءه , وأنتظره كل ثانية أن تجيء , أعــدُ له روحي , وأحرث أرضي , وأبقيني دائماً في حالة من المــد .

القــراءة نجمــي الذي أتبعه , ضوءه يقودني , وينير لي طريقي . وأنا في ركبه أسير لأحيا , وأكون الذي لم أكنه من قبل . بالقراءة أتغير واعرفني [٥٩] .

الهـــــوامـــش

(في الأصل محاضرة ألقيت بمؤسسة السعيد للعلوم والثقافة , يوم الخميس الموافق ٤/٣٠ /٢٠٠٩م) .

١- ديفيد رزنيك , أخلاقيات العلم , ترجمة : عبد النور عبد المنعم , (الكويت : عالم المعرفة , ٣١٦, يونيو ٢٠٠٥م) , ص ٥٤ .

٢- د. أحمد أبو زيد , " هل تقوم ثورة علمية في الوطن العربي " , العربي (الكويت), العدد ٥٦٨,(مارس٢٠٠٦م) , ص ٣٤.

٣- صحيفة ١٤ أكتوبر (عدن) , السنة٣٨, العدد ١٣٣٦٧ , (٤/٩ /٢٠٠٦م) , ص ١١.

٤- ثناء عطوي ، " بلد يقرأ بلد يعيش " ، العربي ، العدد٦٠٨ ، (يوليو ٢٠٠٩م) ،ص٩٣ .

٥- الأستاذ / فيصل سعيد فارع , مؤسسة للعلوم والثقافة . باتجاه العقل (تعز: مؤسسة السعيد للعلوم والثقافة , ط١ ,٢٠٠٧م) , ص ٦٥.

٦- د. عبد العزيز المقالح في لقاء مع مجلة الكتاب (صنعاء) , العدد ١,(ربيع ٢٠٠٥م), ص ٣٥ – ٣٦ .

٧- هتشنسون, معجم الأفكار والأعلام , ترجمة : خليل راشد الجيوسي , (بيروت: دار الفارابي , ط١ , ٢٠٠٧م) , ص ١٤٥ -١٤٦ .

٨- الموسوعة الفلسفية , ترجمة : سمير كرم , (بيروت : دار الطليعة , ط١ , ١٩٧٤م) , ص ١٣٩- ١٤٠ .

٩- أنظر : محمد محمد طاهر آل شبير الخاقاني , علم الاجتماع بين المتغير والثابت , القسم الأول , (بيروت: منشورات دار ومكتبة الهلال , ١٩٨٧م), ص٢٣٢-٢٥٠.

١٠- " طباعة ونشر الكتاب واللغة على مــر التاريخ" , مجلة الكتاب , مرجع سابق , ص ٧٨-٧٩ .

١١- أحمد الشامي , رياح التغيير في اليمن , (دمشق : مطبعة الكاتب العربي , ١٩٨٥م) , ص ٩٠ .

١٢- سلامة موسى " السلطان أكبر " ، موسوعة أقوال المبدعين في القرن العشرين . (١) في الأدب والسياسة والفن (القاهرة : مودى جرافيك للنشر د.ت) ، ص٢٠٨-٢٠٩ .

١٣- الرافــد (الشارقة) , العدد ٩٣ ,(مايو٢٠٠٥م) , ص ١٥ .

١٤- د. رفيف رضا صيداوي ، ((الزقاق الضيق : تساؤلات حول الفورة الثقافية العربية)) ، الدوحة (قطر) ، السنة الثالثة ، العدد ٢٨، (فبراير٢٠١٠م)، ص٢٥ .

١٥- أ.د. كامل محمد المغربي , السلوك التنظيمي مفاهيم وأسس سلوك الفرد والجماعة في التنظيم , (عمان : دار الفكر للنشر والتوزيع , ط٢ , ١٩٩٤م - ١٩٩٥م) , ص ١٥٨.

١٦- أنظر : غــي روشية , مدخل إلى علم الاجتماع العام , (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر , ط١ , ١٩٨٣م) , ص ١٠٤ -١٠٧ .

١٧- د. حليم بركات , المجتمع العربي المعاصر , بحث استطلاعي , (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية , ديسمبر ١٩٨٦م) , ص ٣٢٤- ٣٢٥ .
١٨- د. جهاد عودة ,مكتبة الأسرة , المشروع الثالث .. دراسة موضوعية إحصائيــة (القاهرة : دار الهدى للنشر والتوزيع د. ت) , ص ٥٧ .
١٩- د. سمير عبد الرحمن الشميري , محاضرات في علم الاجتماع السياسي , (عدن : دار جامعة عدن للطباعة والنشر , ٢٠٠٥م) , ص ١١٣.
٢٠- مقابلة مع د. محمد النشائي , العربي العلمي (الكويت) , العدد ٦ , (نوفمبر ٢٠٠٥م) , ص ٢٨ .
٢١- جمال الغيطاني (التكوين) , مجلة الهلال (القاهرة) , (يونيو ٢٠٠٥م) , ص ٢١٥.
٢٢- محمد القاضي , " محمد شكري .. وداعاً " , الرافد , العدد ١٩ (نوفمبر ٢٠٠٣م) , ص ٩ .
٢٣- د. منى حلمي " أمــي .. نوال السعــداوي " , مجلــة الهلال (أكتوبر ٢٠٠٣م) , ص ١٥٥.
٢٤- أورهان مابوق " حقيبة أبي " ,تعريب : عزيز الحاكم , نزوى (عُـــمان) , العدد ٥٦, (أكتوبر ٢٠٠٨ م) , ص ٢٣٣ .
٢٥- يوسف القعيــد , " مفاتيح لدخول الحارة " , العربي , العدد ٥٧٧ , (ديسمبر ٢٠٠٦م) , ص ١١٤.
٢٦- حوار مع الكاتب البرازيلي باولو كويلو , ثقافات (جامعة البحرين) , العدد٩ , (شتاء ٢٠٠٤م) , ص ١٤٦- ١٤٧.

٢٧- محمد الماغوط وسناء زغير ." الحـوار الأخـير" , العربي , العدد ٥٧١ , (يونيو ٢٠٠٦م) , ص ٦٨-٧١.
٢٨- يحي البطاط , " أبطالها مجانين ولصوص وعشاق القراءة عالم ساحر وتاريخ مفقود " , دبي الثقافية (دبي) , السنة الخامسة , العدد ٥٠ , (يوليو٢٠٠٩م) , ص ١٠٢ .
٢٩- سعاد قوادري منيف , " عبد الرحمن منيف السنة الخامسة على الغياب " , نزوى العدد ٥٨ , (إبريل ٢٠٠٩م) , ص ٩ – ١٠ .
٣٠- جُـــمعت المعلومات من مصادر مختلـفة .
٣١- عبد الكاف الرحبي ، " أثر البطالة على الثقافة والبحث العلمي في اليمن " ، الثقافة (صنعاء) ، العدد ٨٨ ، (يونيو ٢٠٠٩م) ، ص٢٤ .
٣٢- المفكر الهندي كريشنا مورتي ، " الروح المستنيرة هدف التعليم " ، تقديم وترجمة : ظبية خميس ، نزوى ، العدد ٥٤ ، (إبريل ٢٠٠٨م) ، ص١١ .
٣٣- " كيف تتحدى إسرائيل العالم العربي " ، أخبار اليوم (صنعاء) ، العدد١٦٩٨ ، (٢٠٠٩/٥/٢٠م) ،ص١٤ .
٣٤- د. نواف عدوان , " دراسة عن الطفل العربي والتلفزيون " , متابعات إعلاميه (صنعاء) , السنة ٣ , العدد ٣٣ , (ديسمبر ١٩٩٣م) , ص ٣١ .
٣٥- خالد جاويش , " الإعلام التلفزيوني الموجه للطفل " , المعرفة (الرياض) , العدد ٩٤, (مارس ٢٠٠٣م) , ص ٩٦ .

٣٦- أحمد الشـهاوي , " لماذا وكيف أقرأ ؟" , دبي الثقافية , العدد ٤٥, (فبراير ٢٠٠٩م) , ص ١١٥ .

٣٧- علي أسعد وطـفة , واقع التنشئة الاجتماعية واتجاهاتها , (ابوظبي : مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية , العدد ٥٨ , ط١ ,٢٠٠١م) , ص ١٠, ١٨ , ٢٨ .

٣٨- د. عبد الرحمن الأحمـد , " موسوعة الكويت العلمية للأطفال موسوعة الأطفال العرب " , في كتاب : ثقافة الطفل العربي , (الكويت : كتاب العربي ٥٠ , ١٥أكتوبر ٢٠٠٢م) , ص ٢٤٦ .

٣٩- أنظر: حـوار مع عبد الواحد لؤلؤة , مجلة الكويت (الكويت) , العدد ٢٦٧ , (يناير ٢٠٠٦م), ص ٦٤ -٦٧ .

٤٠- " وجهـاً لوجـه " د. عبد الكريم الأشتر وعبـــد الرحمن حمادي , العـــربي , العدد ٥٦٧,(فبراير ٢٠٠٦م) , ص ٦٩ .

٤١- أ .د . عبد الجليل التميمي , " الزمن مفاهيم وأهمية استثماره دينياً – اجتماعياً – اقتصادياً – حضارياً " , ٢٦ سبتمبر (صنعاء) , العدد ١٤٣٢, (٢٠٠٩/١/٨م) ، ص ٤ .

٤٢- حوار مع الدكتورة لطيفة النجار , دبي الثقافية , العدد ٤٢ , (نوفمبر٢٠٠٨م) , ص ٣٧ .

٤٣- " وجهـاً لوجـه " نور الشريف وعلي رزق , العربي , العدد ٥٧٢, (يوليو ٢٠٠٦م) , ص ٧٤ .

٤٤- د. عبد العزيز المقالح , مرجع سابق , ص ٣٥ .
٤٥- المعرفة , العدد ٨٠ , (فبراير ٢٠٠٢م) , ص ١٤٤ .
٤٦- " ملف الطفولة والقراءة " , مجلة الطفولة العربية (الكويت) , المجلد ١٠ , العدد ٣٨ , (مارس ٢٠٠٩م) , ص ٧ .
٤٧- د. سامي محمد ملحم , مبادئ التوجيه والإرشاد النفسي , (عمان : دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة , ط١ , ٢٠٠٧م) , ص ٣٩٢.
٤٨- صالح أبو جادو , سيكولوجية التنشئة الاجتماعية , (عمان : دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة , ط ١ , ١٩٩٨م) , ص ٢٥٥ .
٤٩- عن / د. شوقي جلال , ((الإبداع .. هل هو موهبة فردية ؟)) , العربي , العدد ٥٢٩ , (ديسمبر ٢٠٠٢م) , ص ٢٤ – ٢٥ .
٥٠- مخيم أبي الطيب , أقلام المخيم , عرض وتقديم : د. علوي عبد الله طاهر , (عدن : دار جامعة عدن للطباعة والنشـر , ط ١ ٢٠٠٧م) , ص ٦.
٥١- الموسوعة اليمنية في أربعة مجلدات , المجلد الرابع , (صنعاء : مؤسسة العفيف الثقافية , ط ٢ , ٢٠٠٣م) , ص ٢٥٦٩ , ٢٥٧٠.
٥٢- د. سمير عبد الرحمن هائل الشميري , المجتمع المدني والمواطنة المتساوية , (صنعاء : مركز عبادي للدراسات والنشر , ٢٠٠٨م) , ص ٩٥ , ٩٦.
٥٣- د. حسن حنفي ، ((جدران العزلة : الكتاب حرفة أم رسالة ؟)) ، الدوحة ، العدد ٢٩ ، (مارس ٢٠١٠م) ، ص ١٦ .

٥٤- صالح أبو جادو , مرجع سابق , ص ٤٣ - ٤٤ .

٥٥- ((أدباء لن ينساهم التاريخ : الجاحظ أديب قتله علمه)) , آفاق جامعيـــــــة (جامعة عدن) , العدد ٨٠ , (يوليو ٢٠٠٩م) , ص ٩ .

٥٦- الشاعر صلاح دبشة ((حينما خرجت إلى العالم بوصفي شاعراً)) , في : تجارب في الإبداع العربي , (الكويت : كتاب العربي ٧٧ , يوليو ٢٠٠٩م) , ص ٣٥٤ .

٥٧- د. زيد بن محمد الرماني , كيف تقرأ كتاباً قواعد وأساليب , (الرياض : دار الحضارة للنشر والتوزيع , ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م) , ص ٢٧ – ٢٨ .

٥٨- حوار مع القاص العُمــاني محمد بن سيــف الرحبي , دبي الثقافية , العدد ٤٨, (مايو ٢٠٠٩م) , ص ٤٠ .

٥٩- أحمــد الشهاوي , مرجع سابق , ص ١١٥ – ١١٦ .

الملاحق

ملحق (١)

القراءة والكتابة بأقلام كوكبة من المبدعين

المفكر والأديب عباس محمود العقاد

لماذا أهوى القراءة *

أول ما يخطر على البال ، حين يوجه هذا السؤال إلى أحد المشتغلين بالكتابة, أنه سيقول: إنني أهوى القراءة لأنني أهوى الكتابة!. ولكن الواقع أن الذي يقرأ ليكتب وكف هو ((موصل رسائل)) ليس إلا... أو هو كاتب(بالتبعية) وليس كاتباً بالأصالة فلو لم يسبقه كُتاب آخرون لما كان كاتباً على الإطلاق, ولو لم يكن أحد قبله قد قال شيئاً لما كان عنده شيء يقوله للقراءة.

وأنا أعلم فيما أعهده من تجاربي أنني قد أقرأ كتباً كثيرة لا أقصد الكتابة في موضوعاتها على الإطلاق, وأذكر من ذلك أن أديباً زارني, فوجد على مكتبي بعض المجلدات في غرائز أي طباعها) الحشرات, فقال مستغرباً: مالك أنت والحشرات؟.. إنك تكتب في الأدب وما إليه ,فأية علاقة للحشرات بالشعر, والنقد, والاجتماع؟.! ولو شئت لأطلت في جوابه.. ولكنني أردت أن اقتضب الكلام(أي اختصاره) بفكاهة تبدو كأنها جواب وليس فيها جواب... فقلت: نسيت أنني أكتب في السياسةَ! قال: نعم نسيت, والحق معك!... فما يستغني عن العمل بطبائع الحشرات رجل يكتب عن السياسة والسياسيين في هذه الأيام.

والحقيقة ـ كما قلت مراراً ـ أن في الأحياء الدني(أي المخلوقات البسيطة) من أسرار الخلق والتكوين التي تراءى فيها وحدة الخالق وبديع صنعه ما لا نجده في غيرها من الأحياء الأخرى, فإذا اطلع القارئ على كتاب في الحشرات, فليس من اللازم اللازب(أي الثابت)..أن يطلع عليه ليكتب في موضوعه, ولكنه يطلع عليه لينفذ إلى بواطن الطبائع وأصولها الأولى, ويعرف من ثم كيف نشأ هذا الإحساس, أو ذاك الإحساس, فيقترب بذلك من صدق الحس وصدق التعبير, ولو في غير هذا الموضوع. كذلك لا أحب أن أجيب عن السؤال كما أجاب قارئ التاريخ في البيت المشهور:

ومن وعى التاريخ في صدرهأضاف أعماراً إلى عمره**

فليس إضافة أعمار إلى عمر بالشيء المهم إلا على اعتبار واحد, وهو أن يكون العمر المضاف مقداراً من الحياة لا مقداراً من السنين, أو مقداراً من مادة الحس والفكر والخيال, لا مقداراً من أخبار الوقائع وعدد السنين التي وقعت فيها. فإن ساعة من الحس والفكر والخيال تساوي مائة سنة, أو مئات من السنين, ليس فيها إلا أنها شريط تسجيل لطائفة من الأخبار وطائفة من الأرقام. كلاًّ, لست أهوى القراءة لأكتب, ولا أهوى القراءة لأزداد عمراً في تقدير الحساب, وإنما أهوى القراءة لأن عندي حياة واحدة في هذه الدينا ,وحياةً واحدةٌ لا تكفيني, ولا تحرك كل ما في ضميري من بواعث(جمع باعث وهو الدافع (الحركة. والقراءة دون غيرها هي التي تعطيني أكثر من حياة واحدة في عمر الإنسان الواحد, لأنها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق, وإن كانت لا تطيلها بمقادير الحساب...فكرتك أنت فكرة واحدة. شعورك أنت شعور واحد.خيالك أنت خيال فرد إذا قصرته عليك.

ولكنك إذا لاقيت بفكرتك فكرة أخرى, أو لاقيت بشعورك شعوراً آخر, أو لاقيت بخيالك خيال غيرك, فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين, أو أن الشعور يصبح شعورين, أو أن الخيال يصبح خيالين. كلا, وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقي مئات من الفكر في القوة والعمق والامتداد. والمثل على ذلك, محسوس في عالم الحس والمشاهدة, ومحسوس في عالم العطف والشعور.

ففي عالم المشاهدة يجلس المرء بين مرآتين, فلا يرى إنساناً واحداً أو إنسانين اثنين, ولكنه يرى عشرات متلاحقين في نظره إلى غاية ما يبلغه النظر في كل اتجاه. وفي عالم العطف والشعور نبحث عن أقوى عاطفة تحتويها نفس الإنسان, فإذا هي عاطف الحب المتبادل بين قلبين.. لماذا؟ لأنهما لا يحسان بالشيء الواحد كما يحس به سائر الناس...لا يحسان به شيئاً ولا شيئين, وإنما يحسان به أضعافاً مضاعفة لا تزال تتجاوب وتنمو مع التجاوب إلى غاية ما تتسع له نفوس الأحياء. وهكذا يصنع التقاء مرآتين, وهكذا يصنع إلتقاء قلبين ..فكيف بالتقاء العشرات من المرائي النفسية في نطاق واحد؟! وكيف بإلتقاء العشرات من الضمائر والأفكار؟! إن الفكرة الواحد جدول منفصل. أما الأفكار المتلاقية فهي المحيط الذي تتجمع فيه الجداول جميعاً, والفرق بينهما وبين الفكرة المنفصلة كالفرق بين الأفق الواسع والتيار الجارف, وبين الشط الضيق والموج المحصور. وقد تختلف الموضوعات ظاهراً, أو على حسب العناوين المصطلح عليها, ولكنها إذا رددتها إلى هذا الأصل كان أبعد الموضوعات كأقرب الموضوعات من وراء العناوين.

أين غرائز الحشرات مثلاً من فلسفة الأديان؟ وأين فلسفة الأديان من قصيدة غزل وقصيدة هجاء؟ وأين هذه القصيدة أو تلك من تاريخ نهضة أو ثورة؟ وأين ترجمة فرد من تاريخ أمة؟ ظاهر الأمر أنها موضوعات تفترق فيما بينها افتراق الشرق من الغرب, والشمال من الجنوب, وحقيقة الأمر أنها كلها مادة حياة, وكلها جداول تنبثق من ينبوع واحد وتعود إليه.

غرائز الحشرات بحث في أوائل الحياة. وفلسفة الأديان بحث في الحياة الخالدة الأبدية. وقصيدة الغزل أو قصيدة الهجاء قبسان(مثني قبس وهو شعله من النار) من حياة إنسان في حال الحب والنقمة.

ونهضة ألأمم أو ثورتها هما جيشان الحياة(أي نبض الحياة وحركتها) في نفوس الملايين, وسيرة الفرد العظيم معرض لحياة إنسان ممتاز بني سائر الناس. وكلها أمواج تتلاقى في بحر واحد ,وتخرج بنا من الجداول إلى المحيط الكبير.

ولم أكن أعرف حين هويت القراءة أنني أبحث عن هذا كله, أو أن هذه الهواية تصدر من هذه الرغبة, ولكنني هويتها, ونظرت في موضوعات ما أقرأ فلم أجد بينها من صلة غير هذه الصلة الجامعة, وهي التي تتقارب بها القراءة عن فراشة ,والقراءة عن المعري وشكسبير.

لا أحب القراءة لأنني زاهدٌ في الحياة, ولكنني أحب القراءة لأن حياة واحدة لا تكفيني . ومهما يأكل الإنسان, فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة, ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد, ومهما ينتقل في البلاد فإنه لا يستطيع أن يحل في مكانين, ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات في عمر واحد, ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل, وتتضاعف الصورة بين مرآتين.

* مقالة من كتاب ((أنا)) ، منقول من الموقع الإلكتروني www.aywwa.com

عميد الأدب العربي د. طــه حسين*

ولكنه لا يعرف كيف حفظ القرآن ، ولا يذكر كيف بدأه ، ولا كيف أعاده ، وإن كان يذكر في حياته في الكـتـَّـاب مواقف كثيرة منها ما يضحكه الآن ، ومنها ما يحزنه ؛ يذكر أوقاتـًا كان يذهب فيها إلى الكـتـَّـاب محمولاً على كتف أحد أخويه ، لأن الكـتـَّـاب كان بعيداً ، ولأنه كان أضعف من أن يقطع ماشيًا تلك المسافة . ثم لا يذكر متى بدأ يسعى إلى الكـتـَّـاب . ويرى نفسه في ضحى يوم جالسًا على الأرض بين يدي ((سيدنا)) ومن حوله طائفة من النعال ؛ كان يعبث ببعضها ، وهو يذكر ما كان قد ألصق بها من الرقع . وكان ((سيدنا)) جالسًا على دكه من الخشب صغيرة ليست بالعالية ولا بالمنخفضة قد وضعت على يمين الداخل من باب الكـتـَّـاب بحيث يمر كل داخل ((بسيدنا)) . وكان ((سيدنا)) قد تعود متى دخل الكـتـَّـاب أن يخلع عباءته ، أو بعبارة أدق ((دِفـِّـيَّـتَهُ)) ويلفها لفـًا يجعلها على شكل المخدة ويضعها على يمينه ، ثم يخلع نعله ويتربع على دكته ، ويشعل سيجارته ، ويبدأ في نداء الأسماء . وكان ((سيدنا)) لا يعفى نعليه إلا إذا لم يجد من ذلك بدًا ، كان يرقعهما من اليمين ومن الشمال ومن فوق ومن تحت . وكان إذا أخلت به إحدى نعليه دعا أحد صبيان الكـتـَّـاب وأخذ النعل بيده وقال له : تذهب إلى ((الحزيّن)) وهو هنا قريب ، فتقول له : ((يقول لك سيدنا إن هذه النعل في حاجة إلى لوزة من الناحية اليمنى))انظر أترى ؟ هنا حيث أضع أصبعي ، فيقول لك ((الحزيّن)) : ((نعم سأضع لك اللوزة)) فتقول له : ((يقول لك سيدنا : يجب أن تتخير الجلد متينًا غليظًا جديدًا ، وأن تحسن الرقع بحيث لا يظهر ، أو بحيث لا يكاد يظهر)) ، فيقول لك : ((نعم سأفعل هذا)) فتقول له : ((ويقول لك سيدنا : إنه عميلك منذ زمناً طويل ، فاستوص بالأجر خيرًا)) ومهما يقل لك فلا تقبل منه أكثر من قرش ، ثم عد إليَّ مسافة ما أغمض عيني وأفتحها . وينطلق الصبي ويلهو عنه سيدنا ، ثم يعود وقد أغمض سيدنا عينه وفتحها مرة ومرة ومرات .

على أن الرجل كان يستطيع أن يغمض عينه ويفتحها دون أن يرى أو يكاد يرى شيئًا ، فقد كان الصبي ضريرًا إلا بصيصًا ضئيلاً جدًا من النور في إحدى عينيه ، يمثل له الأشباح دون أن يمكنه أن يتميزها . وكان الرجل سعيداً بهذا البصيص الضئيل ... وكان يخدع نفسه ويظن أنه من المبصرين ... ولكن ذلك لم يكن يمنعه من أن يعتمد في طريقه إلى الكتـَّـاب وإلى البيت على أثنين من تلاميذه ، يبسط ذراعيه على كتفي كل واحد منهما ، ويمشي الثلاثة في الطريق هكذا ! قد أخذوها على المارة ، حتى إنهم ليتنحون لهم عنها .

وكان منظر سيدنا عجبًا في طريقه إلى الكتـَّـاب وإلى البيت صباحًا ومساءً . كان ضخمًا بادنًا وكانت دفتيه تزيد في ضخامته وكان كما قدمنا يبسط ذراعيه على كتفي رفيقيه . وكانوا ثلاثتهم يمشون وإنهم ليضربون الأرض بأقدامهم ضربًا . وكان سيدنا يتخير من تلاميذه لهذه المهمة أنجبهم وأحسنهم صوتًا؛ ذلك أنه كان يحب الغناء ، وكان يتخير الطريق لهذا الدرس . فكان يغني ويأخذ رفيقيه بمصاحبته حينًا ، والاستماع له حينًا آخر ، أو يأخذ واحدًا منهما بالغناء على أن يصاحبه هو والرفيق الآخر . وكان سيدنا لا يغني بصوته ولسانه وحدهما وإنما يغني برأسه وبدنه أيضًا ، فكان رأسه يهبط ويصعد ، وكان رأسه يلتفت يمينًا و شمالاً . وكان سيدنا يغني بيديه أيضًا . فكان يوقع الأنغام على صدر رفيقيه بأصبعه . وكان سيدنا يعجبه ((الدّور)) أحياناً ، ويرى أن المشي لا يلائمه فيقف حتى يتمه . وأبدع من هذا كله أن سيدنا كان يرى صوته جميلاً . وما يظن صاحبنا أن الله خلق صوتاً أقبح من صوته ، وما قرأ صاحبنا قول الله عز وجل : ((إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)) إلا ذكر سيدنا وهو يوقع أبياتاً من ((البردة)) في طريقة إلى الجامع منطلقاً لصلاة الظهر ، أو في إلى البيت منصرفاً من الكتـَّـاب .

يرى صاحبنا نفسه كما قدمنا ، جالسًا على الأرض يعبث بالنعال من حوله ، وسيدنا يقرئه سورة الرحمن ، ولكنه لا يذكر أكان يقرؤها بادئاً أم معيدًا .

وكأنه يرى نفسه مرة أخرى جالسًا لا على الأرض ولا بين النعال ، بل على يمين سيدنا على دكة أخرى طويلة ، وسيدنا يقرئه : ((أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)) ، وأكبر ظنه أنه كان قد أتم القرآن بدءًا وأخذ يعيده . وليس غريبًا أن ينسى صاحبنا كيف حفظ القرآن فقد أتم حفظه ولم يتم التاسعة من عمره . وهو يذكر في وضوح وجلاءٍ ذلك اليوم الذي ختم فيه القرآن ، وعن أن أباه سيبتهج به . وكان يضع لذلك شروطًا ويطالب بحقوقه . ألم يكن قد علم قبل صاحبنا أربعة من إخوته ذهب واحدًا منهم إلى الأزهر ، والآخرون إلى المدارس ، وصاحبنا هو الخامس ... فكم لسيدنا على الأسرة من حقوق ! وحقوق سيدنا على الأسرة كانت تتمثل دائمًا طعامًا وشرابًا وثيابًا ومالاً . فأما الحقوق التي كان يقتضيها إذا ختم صاحبنا القرآن فعشوة دسمة قبل كل شيء ، ثم جبة وقفطان وزوج من الأحذية وطربوش مغربي وطاقية من القماش الذي تتخذ منه العمائم وجنيه أحمر ، لا يرضى بشيء دون ذلك ... فإذا لم يؤدَّ إليه هذا كله فهو لا يعرف الأسرة ، ولا يقبل منها شيئاً ، ولا صلة بينه وبينها ، وهو يقسم على ذلك بمحرجات الإيمان , وكان هذا اليوم يوم أربعاء . وكان سيدنا قد أنبأ في الصباح بأن صاحبنا سيختم القرآن في هذا اليوم ، وأقبلوا في العصر ؛ يمشي سيدنا معتمدًا على رفيقيه ، ويمشي صاحبنا من ورائه يقوده يتيم من أيتام القرية . حتى إذا بلغوا البيت دفع سيدنا الباب دفعًا ، وصاح صيحته المعتادة : ((يا ستـّار)) وأتجه إلى المنظرة فإذا فيها الشيخ قد أنفلت من صلاة العصر وهو يقرأ شيئًا من الأدعية كعادته ، فأستقبلهم مبتسمًا مطمئنًا ، وكان صوته هادئًا ، وكان صوت سيدنا عاليًا ،

وكان صاحبنا لا يقول شيئا ، وكان اليتيم مبتهجًا . أجلس الشيخ سيدنا ورفيقيه ، ووضع في يد اليتيم قطعة من فضة ، ودعا الخادم وأمره أن يأخذ هذا اليتيم إلى حيث يصيب شيئًا من الطعام ، ومسح على رأس أبنه وقال : ((فتح الله عليك ، أنصرف إلى أمك ، وقل لها إن سيدنا هنا)) .

وكانت أمه قد سمعت صوت سيدنا ، وكانت قد أعدت له ما لا بد منه في هذا الوقت ، وهو كوز ضخم طويل من السكر المذاب لا شيء عليه . أخرج إلى سيدنا هذا الكوز فعبه عبًّا ، وشرب رفيقاه كوبين من السكر المذاب أيضًا . ثم أخرجت القهوة فشربها سيدنا مع الشيخ . وكان سيدنا يلح على الشيخ أن يمتحن الصبي فيما حفظ من القرآن ، وكان الشيخ يجيب : ((دعه يلعب إنه صغير)) ثم نهض سيدنا لينصرف ، فقال له الشيخ : ((نصلي المغرب معاً إن شاء الله)) وكانت هذه هي الدعوة إلى العشاء .

وما أحسب أن سيدنا نال شيئًا آخر أجرًا على ختم صاحبنا للقرآن ، فقد كان يعرف الأسرة منذ عشرين سنة ، وكان له فيها عادات غير مقطوعة ، وكانت الكلفة بينه وبينها مرفوعة ، وكان واثقًا أن الحظ إن يخطئه معها هذه المرة فلن يخطئه مرة أخرى .

منذ هذا اليوم أصبح صبينا شيخًا وإن لم يتجاوز التاسعة لأنه حفظ القرآن، ومن حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن سنه . دعاه أبوه شيخًا ، ودعته أمه شيخًا ، وتعود سيدنا أن يدعوه شيخًا أمام أبويه ، أو حين يرضى عنه ، أو حين يريد أن يترضاه لأمر من الأمور . فأما فيما عدا ذلك فقد كان يدعوه باسمه ، وربما دعاه ((بالواد)). وكان شيخنا الصبي قصيرًا نحيفًا شاحبًا زريّ الهيئة على نحو ما ، ليس له من وقار الشيوخ ولا من حسن طلعتهم حظ قليل أو كثير . وكان أبواه يكتفيان من تمجيده وتكبيره بهذا اللفظ الذي أضافاه إلى أسمه كبرًا منهما وعجبًا لا تلطفًا به ولا تحببًا إليه. أما هو فقد أعجبه هذا اللفظ في أول الأمر ، ولكنه كان ينتظر شيئًا آخر من مظاهر المكافأة والتشجيع . كان ينتظر أن يكون شيخاً حقاً ، فيتخذ العمّة ويلبس الجّبة والقفطان ، وكان من العسير إقناعه بأنه أصغر من أن يحمل العمّة ويدخل في القفطان ... وكيف السبيل إلى إقناعه بذلك وهو شيخ قد حفظ القرآن ! وكيف يكون الصغير شيخًا ! وكيف يكون من حفظ القرآن صغيرًا ! هو إذاً مظلوم ... وأي ظلم أشد من أن يحال بينه وبين حقه في العمّة والجبة والقفطان !...

وما هي إلا أيام حتى سأم لقب الشيخ ، وكره أن يدعى به ، وأحس أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأن الإنسان يظلمه حتى أبوه ، وأن الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع .

ثم لم يلبث شعوره هذا أن استحال إلى ازدراء للقب الشيخ ، وإحساس بما كان يملأ نفس أبيه وأمه من الغرور والعجب ، ثم لم يلبث أن نسى هذا كله فيما نسى من الأشياء .

على أنه في حقيقة الأمر لم يكن خليقاً أن يدعى شيخاً ، وإنما كان خليقاً رغم حفظه للقرآن أن يذهب إلى الكتـَّاب كما كان يذهب مهمل الهيئة ، على رأسه طاقية التي تنظف يوماً في الأسبوع ، وفي رجله حذاء يجد مرة في السنة ، ولا يدعه حتى لا يحتمل شيئا ، فإذا تركه فليمش حافياً أسبوعاً أو أسابيع حتى يأذن الله له بحذاء جديد . كان خليقاً بهذا كله ؛ لأن حفظه للقرآن لم يدم طويلاً ... أكان وحده ملوماً في ذلك ؟ أم كان اللوم مشتركاً بينه وبين سيدنا ؟ الحق أن سيدنا أهمله حيناً وعنى بغيره من الذين لم يختموا القرآن . أهمله ليستريح ، وأهمله لأنه لم يتقاض أجراً على ختمه للقرآن ، واستراح صاحبنا إلى هذا الإهمال ، وأخذ يذهب إلى الكتـَّاب يقضي فيه
طوال النهار في راحة مطلقة ، ولعب متصل ، ينتظر أن تنتهي السنة ويأتي أخوه الأزهري من القاهرة ، حتى إذا انتهت الإجازة وعاد إلى القاهرة ، اصطحبه ليصبح شيخاً حقاً ، وليجاور في الأزهر .

ومضى على هذا شهر وشهر و شهر . يذهب صاحبنا إلى الكتـَّاب ويعود منه في غير عمل ، وهو واثق بأنه قد حفظ القرآن ، وسيدنا مطمئن إلى أنه قد حفظ القرآن ، إلى أن كان اليوم المشئوم ... كان هذا اليوم مشئوماً حقاً ، ذاق فيه صاحبنا لأول مرة مرارة الخزي والذلة والضعة وكره الحياة . عاد من الكتـَّاب عصر ذلك اليوم مطمئناً راضياً ، ولم يكد يدخل الدار حتى دعاه أبوه بلقب الشيخ ، فأقبل عليه وكان معه صديقان له . فتلقاه أبوه مبتهجاً ، وأجلسه في رفق ، وسأله أسأله عادية ، ثم طلب إليه أن يقرأ ((سورة الشعراء)) . وما هي إلا أن وقع عليه هذا السؤال وقع الصاعقة ، ففكر وقدر ، وتحفز واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ،

وسمَّى الله الرحمن الرحيم . ولكنه لم يذكر من سورة الشعراء إلا أنها إحدى سور ثلاث ، أولها (طسم) ، فأخذ يردد (طسم) مرة ومرة و مرة ، دون أن يستطيع الانتقال إلى ما بعدها . وفتح عليه أبوه بما يلي هذه الكلمة من سورة الشعراء ، فلم يستطيع أن يتقدم خطوة . قال أبوه : فاقرأ سورة النمل . فذكر أن أول سورة النمل ، كأول سورة الشعراء (طس) وأخذ يردد هذا اللفظ ، وفتح عليه أبوه ، فلم يستطيع أن يتقدم خطوة أخرى .. قال أبوه : فاقرأ سورة القصص ، فذكر أنها الثالثة ، وأخذ يردد (طسم) ولم يفتح عليه أبوه هذه المرة ، ولكنه قال له في هدوء : قم ، فقد كنت أحسب أنك حفظت القرآن ، قام خجلاً يصبب عرقاً ، وأخذ الرجلان يعتذران عنه بالخجل وصغر السن ، ولكنه مضى لا يدري أيلوم نفسه لأنه نسى القرآن ، أم يلوم سيدنا لأنه أهمله ، أم يلوم أبوه لأنه امتحنه ..؟

ومهما يكن من شيء ، فقد أمسى هذا اليوم شر مساء ، ولم يظهر على مائدة العشاء ، ولم يسأل عنه أبوه ، ودعته أمه في إعراض إلى أن يتعشى معها ، فأبى . فانصرفت عنه ونام .

ولكن هذا المساء المنكر كان في جملته خيراً من الغد . ذهب إلى الكتَّاب ، فإذا سيدنا يدعوه في جفوة : ماذا حصل بالأمس ؟ وكيف عجزت أن تقرأ سورة الشعراء؟ وهل نسيتها حقاً ؟ أتلها عليّ ! فأخذ صاحبنا يردد (طسم) ... وكانت له مع سيدنا قصة كقصته مع أبيه . قال سيدنا : عوضني الله خيراً فيما أنفقت معك من وقت ، وما بذلت في تعليمك من جهد ، فقد نسيت القرآن ويجب أن تعيده . ولكن الذنب ليس عليك ولا عليّ ، وإنما هو على أبيك ؛ فلو أنه أعطاني أجري يوم ختمت القرآن لبارك الله له في حفظك ، ولكنه منعني حقي فمحا الله القرآن من صدرك .

ثم بدأ يقرأ القرآن من أوله ، شأنه مع من لم يكن شيخاً ولا حافظاً .

وليس من شك في أنه حفظ القرآن بعد ذلك حفظاً جيداً في مدة قصيرة جداً . فهو يذكر في انه عاد من الكتَّاب ذات يوم مع سيدنا ، وكان سيدنا في هذا اليوم حريصاً على أن يعود معه ، حتى إذا وصلا إلى الدار عطف عليها سيدنا فدفع الباب فاندفع له ، وصاح صيحته المألوفة : يا ستار ! وكان الشيخ كعادته في المنظرة قد فرغ من صلاة العصر : فلما أستقر سيدنا في مجلسه ، قال للشيخ : ((زعمت أن أبنك قد نسى القرآن ، ولمتني في ذلك لوماً شديداً ، وأقسمت لك أنه لم ينس وإنما خجل ، فكذبتني وعبثت بلحيتي هذه ، وقد جئت اليوم لتمتحن أبنك أمامي ، وأنا أقسم : لئن ظهر أنه لا يحفظ القرآن لأحلقن لحيتي هذه ولأصبحن معرة الفقهاء في هذه البلد)) . قال الشيخ ((هوِّن عليك ! وما لك لا تقول : أنه نسى القرآن ثم أقرأته إياه مرة أخرى)) ؟ قال: ((أقسم بالله ثلاثاً ما نسيه ولا أقرأته ، وإنما استمعت له القرآن ، فتلاه عليَّ كالماء الجاري ، لم يقف ولم يتردد)) .

وكان صاحبنا يسمع هذا الحوار ، وكان مقتنعاً أن أباه محق وأن سيدنا كاذب ، ولكنه لم يقل شيئاً ، ولبث منتظراً الامتحان .

وكان الامتحان عسيراً شاقاً ، ولكن صاحبنا كان في هذا اليوم نجيباً بارعاً ، لم يُسأل عن شيء إلا أجاب في غير تردد وقرأ في إسراع ، حتى كان الشيخ يقول له : ((على مهلك فإن الكر في القرآن خطيئة)) . حتى إذا أتم الامتحان قال له أبوه : ((فتح الله عليك ، أذهب إلى أمك فقل لها أنك حفظت القرآن حقاً)) ذهب إلى أمه ولكنه لم يقل لها شيئاً ولم تسأله عن شيء . وخرج سيدنا في ذلك اليوم ، ومعه جبة من جوخ خلعها عليه الشيخ .

أقبل سيدنا إلى الكتـّاب من الغد مسروراً مبتهجاً ، فدعا له الشيخ الصبي بلقب الشيخ هذه المرة قائلاً : أما اليوم ، فأنت تستحق أن تدعى شيخاً ، فقد رفعت رأسي وبيضت وجهي وشرفت لحيتي أمس ، واضطر أبوك إلى أن يعطيني الجبة . ولقد كنت تتلو القرآن أمس كسلاسل الذهب ، وكنت على النار مخافة أن تزل أو تنحرف ، وكنت أحصنك بالحي القيوم الذي لا ينام ، حتى انتهى هذا الامتحان . وأنا أعفيك اليوم من القراءة ولكن أريد أن آخذ عليك عهداً ، فعدني بأن تكون وفياً . قال الصبي في استحياء : لك عليّ الوفاء . قال سيدنا ك فأعطني يدك . وأخذ بيد الصبي . فما راع الصبي إلا شيء في يده غريب ، ما أحس مثله قد ، عريض يترجرج ، ملؤه شعر تغور في الأصابع ، ذلك أن سيدنا وضع يد الصبي على لحيته وقال : هذه لحيتي أسلمك إياها ، وأريد ألا تهينها ، فقل : ((والله العظيم)) ثلاثاً ((وحق القرآن المجيد لا أهينها)) وأقسم الصبي كما أراد سيدنا . حتى إذا فرغ من قسمه ؛ قال له سيدنا : كم في القرآن من جزء ؟ قال : ثلاثون . قال سيدنا : وكم نشتغل في الكتـّاب من يوم ؟ قال الصبي : خمسة أيام . قال سيدنا : فإذا أردت أن تقرأ القرآن مرة في كل أسبوع ، فكم تقرأ من جزء كل يوم ؟ فكر الصبي قليلاً ثم قال : ستة أجزاء . قال سيدنا : فتقسم لتتلوَنَّ على العريف ستة أجزاء من القرآن في كل يوم من أيام العمل ، ولتكوننَّ هذه التلاوة أول ما تأتي به حين تصل الكتـّاب . فإذا فرغت منها فلا جناح عليك أن تلهو وتلعب ، على ألا تصرف الصبيان عن أعمالهم .. أعطى الصبي على نفسه هذا العهد . ودعا سيدنا العريف فأخذ عليه عهداً مثله ، ليسمعنَّ للصبي في كل يوم ستة أجزاء من القرآن ، وأودعه شرفه ، وكرامة لحيته ، ومكانة الكتـّاب في البلد ، وقبل العريف الوديعة . وانتهى هذا المنظر وصبيان الكتـّاب ينظرون ويعجبون .

---

* طــه حسين ، الأيام (القاهرة : مركز الأهرام للترجمة والنشر مؤسسة الأهرام ، ط١ ، ١٩٩٢م) ، ص٣٢-٤٥ .

لماذا و كيف أقرأ ؟*

بقلم/أحمد الشهاوي

الكتب كثيرة .. ولكن قليلها هو الذي يُقرأ كيف يعيش كتاب وشعراء دون قراءة شعراء وكتاب يعيشون على ما هو شفاهي ومروج لا توجد نفس نقية دون قراءة القراءة تعصم من العزلة وتحفظ من الهذيان ولما كان الأمر الإلهي ((اقرأ)) قد استقر في روحي وأنا طفل ، حيث بدأ أبي يحفظني القرآن ، صرت كائناً مشغولاً بالقراءة ، مهمته في الحياة أن يقرأ ، حيث في القراءة معرفة للروح ، وانفتاح على الذات ، وخوض في عتمتها علها تشعل نوراً ، ودخول حثيث إلى الكائنات الغامضة التي تسكنني .

لم يكن هدفي أن أكون جامعاً للمعلومات ، بقدر ما كنت حريصاً على أن اعرفني ، أن أزيل غموضي و التباسي ، وأكتشف ما خفي فيَّ ،وأحدد معالمي فوق خريطة الكون .

هل كنت أنشد الحكمة . ربما. هو الأمر كذلك على الأرجح ، فالكتب كثيرة لكن قليلها الذي هو الذي يُقرأ و نادرها هو الذي يبقى ، فمثلما الماء في كل مكان بينما القليل منه هو الصالح لأن نشربه ، كذلك الأمر مع الكتب ، ففي كل حضارة هناك الكتب الأساسية التي تؤسس وتفتح لقارئها أفقاً آخر ، تغير ، وتعلم ، وتحول المرء من النقيض إلى النقيض ، وعادة نحن لا نكتشف هذه الكتب الأعمدة أو الرئيسية إلا بالبحث والتجربة وممارسة عادة القراءة ، لأن القراءة مغامرة ، والقارئ الذي يغامر ، الفوز حليفة ، لأنني أرى المبدع في كتاباته قارئ محترف ، في الوقت الذي هو فيه كاتب محترف أيضاً .

ولا شيء يخيف المغامر ، فكل قراءة لها متعتها وخصوصيتها ، هي عالم مجهول نرتاده لنعرف أنفسنا . وكنت محظوظاً حيث وجدت منذ حداثة سني من يوجهني إلى القراءة (أبي وأخي محمد خصوصاً) ، فإن هناك أشياء عديدة عن القراءة اكتشفتها مع كل يوم يمر . ولا أحد ينتظر من القراءة نفعاً مادياً سوى نشدان المعرفة ، المعرفة الخلاقة التي تقود إلى الابتكار والخلق والتجديد والتجريب والبحث ، وتهذيب السلوك ، ومن يقرأ بسبب هدف ما مادي يحصل عليه في النهاية ، سيفقد المتعة ، لأننا نقرأ لنفكر ، لا لنكسب أو نفوز أو نحرز انتصارا ما من أي نوع . عادة الخلاقون يتحاشون " القراءة المادية " لأن طريقها مسدود، حيث يصير فيها الكتاب ليس رفيقاً أو صديقاً ، وإنما عبء ينبغي التخلص منه بعد ما نحقق أغراضنا . ومن هنا ينبغي أن يتداخل الاثنان معاً القارئ والكتاب ، كل يحاول قراءة الآخر ، والتحاور معه ، والوصول إلى معرفة .

ولأن عمري محدود ، صرت أتخلص من الكثير مما لدي من الكتب ، فهناك آلاف الكتب التي قرأتها ولن أعود إليها أبداً ، ووجودها في المكتبة ، لا يعني سوى التكدس والمباهاة بأن لدي مكتبة كبيرة فيها كذا ألف كتاب . وهناك كتب دخلت إلى مكتبتي خطأ ولا جدوى أو طائل من ورائها ، ولا ادري كيف طبعت ووزعت ، وكتب أهديت إلي ، لا يمكن أن تدخل في سياق قراءاتي أو نسق معرفتي ، قراءتها تؤخر ولا تقدم . ومن ثم أبقي فقط على كل كتاب أراه مفيداً وصالحاً وقادراً على أن يمنحني شيئاً . ثم أنني لا أقرأ لقضاء الوقت ، أو ملء فراغ في حياتي ، فليس لدي وقت لآكل ، وأعرف أني لن أعيش طويلاً أو إلى الأبد ، وعليَّ أن أكون دقيقاً في اختياراتي ، فاليوم الذي أقضيه مع كتاب لم أستفيد منه جديداً أعده نقص من عمري ، ولن أستطيع تعويضه ، مثله مثل اليوم الذي يمر دون أن أقرأ فيه و أتحصل على معرفة جديدة ، فهو يوم ميت .

فلا توجد نفس نقية دون قراءة.

فالكتاب يطهر ، ويثري ، ويجعل المرء في حوار داخلي خلاق مع ذاته ، ولا أعرف ما الذي كنت سأفعله إن لم أكن قارئاً ، ولا أتصور كيف يعيش الناس دون قراءة ، بل أوغل في التساؤل وأقول : كيف يعيش كُـتـَّاب وشعراء دون قراءة ، فمن خبرتي بهؤلاء أعرف أنهم لا يقرؤون إلا قليلاً ، ويعيشون على الشفاهي والمروج، والمجتزآت المبثوثة في الصحف والمجلات . ومن المفروض أن يكونوا شموعاً توقد للآخرين ، أراهم يحرقون بجهلهم المتشمِّع .

وقديماً في القرن السابع عشر الميلادي قال رفيق محب للكتاب هو ريتشارد ويتلوك : ((الكتب خير ما في الحياة ، إنها مستشارون من غير أجر ، سهلة المأخذ ، سريعة في تلطف . أحص كتبك في باب جرد الجواهر ، إنها مستقبل الزمن ، وسفينة المسافر العائد أو جواده ، وخير تسلية للرجل المشغول ، ومسكن التعب الكسول ، وخير كاهن للذهن ، حديقة الطبيعة . إنها قربان الروح الأخير ، و هي إزاء الموت شراب مُنبه)) .

وأنا أقرأ مثلما أحب ، لا بد من متعة روحية وذهنية .

لا أجبرني على إكمال كتاب سقيم .

صحيح أن المرء غالباً ما يتورط في شيء، لكنه حتماً سيتخلص منه يوماً ما .

لا بد من أن أتذوق ما أحب ، لا أكره نفسي على شيء ، وهكذا القراءة لا بد أن نعرف كيف نعيشها ونحياها .

والقارئ لا يجعل ما يفتن يفلت من يديه ، فهو يتودد ويتقرب ، ويذهب إلى المستحيل كي يكون معه ، فهو الرفيق والصديق المحبوب الأسمى و الأبقى .

أعرف من يعيش حياته فقط للقراءة ، وقليل من وقته للكتابة .

فالكتاب هو الصاحب في هذا الزمان وكل زمان ، يصحبنا أينما كنا ، معنا ، لا يفارقنا ، ينام في حضننا ، في المطبخ ، فوق المخدة ، على السرير ، في الحمام ، في المكتب ، في مكتبة البيت ، في السيارة ، في اليد ، في جيب السترة التي نرتديها ، وهو المخلص من الكآبة والملل والسأم ، هو العلاج للروح ، والشافي لأي وجع . ولهذا يستخدمه العلم الحديث في علاج كثير من الأمراض .

وإذا كانت أشياء كثيرة مما نقتنيها تبلى وتتكسر ، وتفقد ، فإن الكتاب وحده الذي يبقى شاهداً ، معرفته حية ، وعطره باق ، هرم خالد يدل على كاتبه ومقتنيه معاً ، وما الكتب التي نخلفها وراءنا ونحن ذاهبون إلى الموت إلا الشاهدة التي تحفظ ذكرانا ، وتشير إلينا .

ومثلما الشعر نشاط فردي ، فالقراءة أيضاً ، فيها أكون وحيداً مع شخوص كثيرين يطلون عليَّ من صفحات الكتاب ، أحاورهم ، وأناقشهم ، قد أغير رأيي في مسألة ما ، طالما هناك ما يقنعني بذلك ، وصحيح أن لدي ثوابت راسخة في حياتي ، لا يعني تطويرها أو تنميتها ، أو ربما تغيير أجزاء فيها تغيُّر جذريٌ ، أو انقلابٌ ، أو قلقٌ أو تذبذبٌ ، في عقيدتي وإيماني .

لكنني أقرأ بقلب وعقل مفتوحين عليّ وعلى العالم . فلا يوجد شيء مغلق ، والدنيا نص مفتوح ، بابه ليس مواربأ أو مقفلاً ، وإنما قابلاً لعديد من الأشكال والصور .

ومثلما لنا أب واحد وأم واحدة وأخوة وأصدقاء وأقرباء قليلون وحميمون ، فإن في حياتنا كتباً قليلة علـّمتنا وغيرتنا منذ الصغر ، وكونت شخصياتنا ، وقادتنا إلى طرق رئيسية أو فرعية ، حتى لا نتوه في هذا العالم الصاخب ، وعلينا أن نحرص بقية حياتنا على أن نتوقف أمام الكتب العلامات ، البارزة والدالة والجوهرية ، التي تقود شعوباً وأمماً ، لا نتوقف أمام ثقافة أو حضارة بعينها ، لأن المعارف تتزاوج وتعشق وتحب وتتداخل ، وتتحاور ، وتنفتح إلى بعضها ، ونحن لا نعيش بمفردنا على هذه الأرض ، وما نملكه ليس هو الجوهر الفريد ، أو الأوحد أو الأعلى ، أو الأفضل ، وإنما هناك من هم مثلنا ، أو يفوقوننا ، وعلينا أن نحيط علماً ومعرفة بما لدى الآخر الذي يعيش عصرنا ، أو تقدم علينا .

وقد حاولت أن أستدرك ما فاتني ، واستطعت أن أجمع عدداً كبيراً من الكتب الكبيرة في حضارات بلاد فارس والهند والصين واليابان والتبت وإفريقيا وبابل وآشور و مصر القديمة و أوغاريت وفينيقيا واليونان ، والقبائل ، وأمريكا اللاتينية وغيرها ، تشكل معرفة مقدسة لدى شعوبها ، وقارئها – أيضاً – من أية ثقافة أو حضارة أخرى .

هذه الكتب أنقذتني من الانخراط في قراءة مئات الكتب التي تلفظها المطابع العربية سنوياً، ولا طائل من قراءتها، أو إضاعة الوقت لمعرفة ما فيها.

ولأن العمر قصير ، علينا أن نتخير ما نقرأ ، ففي كل ثقافة أو حضارة هناك قائمة طويلة بالكتب الكبيرة والأساسية في الشعر والرواية والمسرح والفلسفة والفنون والديانات وعلم النفس والاقتصاد والسياسة والموسيقى ، وغيرها من المعارف والعلوم والفنون ، وإذا جمعنا عدداً من القوائم ، وبحثنا في المكتبات على مدار عام –مثلاً – سنتحصل عليها ، وهذه القوائم تشكل المكتبة الخاصة لكل منا ، هي الخلاصة ، والعصارة ، والفرائد ، إنها لآلئ طبيعية نادرة تضعنا في نار الإبداع ، نتلقى ونحاور ونكون فاعلين مع ذواتنا وفي المكان الذي نعيش فيه .

ومن عاداتي عندما أصل إلى كتاب لافت ومفيد أشتري منه نسخاً عديدة ، وأهديها إلى أصدقائي المقربين ، لأنني أحبهم ، وأطمح أن يقرؤوا الكتب نفسها التي أقرؤها ،إنني بهذا أريد أن أعمم معرفة أو إبداعاً خاصاً ، ومن النادر أن نجده وسط ركام من الكتب التي نطالعها على الأرصفة وفي وجهات المكتبات ، أو معارض الكتب .

والقارئ المحترف ، الفاهم ، الواعي العارف ، لا يحار عندما يذهب – مثلاً – إلى معرض للكتاب ، لن ينبهر ويقول : ما الذي سأشتريه ؟ لأنه يعرف سلفاً ، ما الذي يحتاج إليه ، أو سيتوقف أمامه ، أو بحكم خبرته سيعرف الكتب المفصلية في كل علم أو فرع من المعرفة .

وهناك كـُتـّاب قرأت لهم أكثر من كتاب، ولم أجد لديهم ما يثيرني ، أو يمتعني ، هؤلاء أتوقف عن قراءة أي أعمال تصدر لهم لاحقاً ، لأنهم من وجهة نظري لن يضيفوا جديداً .

وهناك كتب لا تقرأ أساساً ، لأنها تعرف من عناوينها ، ولا تستأهل – حتى – مشقة تقليب صفحاتها .

وهناك كتب، أخوض ربع أو نصف صفحاتها ، وأقرر التوقف عن الاستمرار في قراءتها ، لأن استكمالي لها صار ضرباً من اللاجدوى .

ودوماً ما أسأل أينما كنت عن الكتب المهمة التي صدرت حديثاً ، وما مدى الإفادة منها . وبعد ذلك أقرر اقتناءها ، واستشير من أثق في رأيهم عما أقرأ .

ولأن الكتب أذواق ، فأحياناً ما يخيب ظني فيمن استشرتهم ،ولا أجد فيما قرأت شيئاً مما ذكروه لي ، أو أشاروا إليه .

القراءة تعصمني من العزلة ، وتحفظني من الهذيان ، وتقيني من الوحدة المتوحشة ، هي رفيقي في السفر ،أم روحي ، محبوبي الذي أفتقده ، وأحن إليه ، وأرقب لقاءه ، وأنتظر كل ثانية أن يجيء ، أعد له روحي ، وأحرث له أرضي ، وأبقيني دائماً في حالة من المد .

القراءة نجمي الذي أتبعه .

ضوؤه يقودني ، وينير لي طريقي .

وأنا في ركبه أسير لأحيا ، وأكون الذي لم أكنه من قبل .

بالقراءة أتغير ، وأعرفني .

---

* دبي الثقافية (دبي) ، السنة الخامسة ، العدد ٤٥ ، (فبراير ٢٠٠٩م) ، ص١١٦-١١٤ .

عبد الرحمن منيف

السنة الخامسة على الغياب*

بقلم/سعاد قوادري منيف(الكاتبة زوجة الروائي منيف)

عبد الرحمن كيف يقرأ :

مما كان يميز عبد الرحمن ، هي طريقته الخاصة بقراءة الكتب ، لقد كان يتناول كتاباً بعد أن يختاره بناء على أسم الكاتب وتراثه أو الموضوع وأهميته بالنسبة له أو للآخرين ، وفي جميع المجالات من فكر وسياسة وأدب ومذكرات وتاريخ ...

تبدأ طريقة القراءة التي لها أيضاً ظروفها وتقنياتها ، فالقراءة ليست للتسلية وتمضية الوقت إنها حالة جادة من التيقظ والتعلم والمعرفة ، إضافة للدهشة والتقدير لإمكانيات الكاتب ، فكثيراً ما يتوقف عن القراءة وفي يده الكتاب متسائلاً ومعجباً بأسلوبه أو مادته أو بمعالجته للموضوع ويعود مسرعاً للاستمرار بشغف ونهم ، هذا إذا حاز على إعجابه ، أو حالة من النرفزة والانزعاج ، لغير ذلك ، فهو برأيه أن الكتب صنفان : ((الكتب الرديئة جداً و العظيمة جداً تتميزان بصفة مشتركة : أنك لا تنتهي منها حتى يتملكك غضب لا تستطيع مقاومته . أن تبعدها ، أن تدمرها . هذا ما يحس به الإنسان ، ولكن سبب الإحساس مختلف . الكتب الرديئة تريد أن تنسى الوقت الذي صرفته ، التفاهات التي قابلتها . أما الكتب العظيمة عندما تريد أن تدمرها ، فأنت تريد أن تدمر هذا الأثر الملعون الذي يعلق بجدران الشرايين ، ويترك في النفس ألماً وعذاباً)) .

أما الملاحظة الأخرى: هي تناول القلم والدفتر ، ليخط ملاحظاته بعد انتهائه من القراءة ، لم يكن يقصد النقد أو النشر ، وإنما ملاحظات له وحده . هذه الكتابات الأولية لم تكن دراسات نقدية بحثه ، وإنما حتى لا يمر الكتاب مرور الكرام ، ليحفر في ذاكرته لوقت طويل ، يستمتع به ، ويحدث الأصدقاء ، وكثيراً ما يصبح هذا الكتاب ، أو ذاك ، حديث المجموعة كلها وأحياناً كثيرة ينتقل من يد ليد ليستقر بعيداً ، ويفقد من المكتبة في كثير من الحالات .

هكذا يقرأ عبد الرحمن .

ولدى مطالعتي لأوراقه ، والتي تنتمي لأوائل السبعينات ، والتي لم تنشر سابقاً ، تشير إلى طريقته في القراءة والتعليق على بعض الكتب ، حينها ، وكيف يراها ، وما وجد فيها ، محفزة قارئ هذه الأوراق لإعادة قراءة تلك الكتب ، أو اكتشافها مرة أخرى وهذا ما حصل لي ، من هنا اخترت كتاب المؤلفات الكاملة للكاتب يوسف إدريس ، والذي كان يعتبره رائد القصة القصيرة بامتياز .

المؤلفات الكاملة ، ليوسف إدريس

القصص القصيرة : حادثة شرف ، آخر الدنيا ، لغة الآي آي .

أولاً : حادثة شرف

١- محطة :

قصة تحدث كل يوم في الأتوبيس ، في الشارع ، في مستوصف ، في أي مكان يمكن أن يلتقي فيه الناس .

وفي هذه الأمكنة التي يلتقي الناس فيها ، يمكن أن تحدث قصة ، ويمكن أن لا تحدث ، وحتى لو حدثت يمكن أن نراها أو لا نراها ، وحتى لو رأيناها ، قد نراها من زاوية الحدث الذي لا يخلق رداً ، استجابة ، أو أنه يتحول إلى لحظة مضغوطة تعني كل إنسان .

في هذه القصة يحول يوسف إدريس الشيء العادي إلى غير عادي ، وهذه مهمة الفنان أن يلتقط اللحظات الأكثر أهمية ، الأكثر عمقاً ويعرضها ، ومن أي زاوية يعرضها ، إنه يفعل ذلك من خلال عيون معادية تقريباً ، أو من خلال عيون عاجزة في أحسن الأحوال . وأثناء ما ترى العيون المعادية أو العاجزة ، تبرز ملامح الوجوه: رجال كبار بياقات وقورة ومعاطف في وقت لا حاجة للمعاطف ، ومحاولة للراحة الكاملة في الباص ، على حساب الآخرين ، وفضول مقارنة ، ثم تنتهي بشتيمة جبانة بعد أن ينزل الأطراف الآخرون !

إن وظيفة القصة القصيرة جمع فيضان الأشعة الصغيرة المبعثرة المتلاشية في نقطة تجمع واحدة ، وفي لحظة معينة ، إطلاقها . قد ترجع إلى الماضي ، قد تتحدث عن المستقبل ، قد تهذي ، قد تتعثر ، ولكن المهم أن تطلق الخرطوشة عندما يمر الطائر ، عندما يظهر الهدف ، وإذا حصلت عملية الجمع ، والضغط ، ولم تطلق الخرطوشة في مكانها ، في وقتها ضاعت .. فقدت أهميتها .

وهكذا يستطيع يوسف إدريس جمع لحظات الماضي التي تعنيه عندما كان طالباً في الجامعة ، ويضع بؤرة ضوء يمكن ، في وقت لاحق ، أن ينطلق منها الضياء ، ويصف الذي يركب بجانبه ، في صورة الماضي البعيد ، المزحوم العقل والشباب والكلمات ، والذي يندلق بعينه في محاولة يائسة لالتقاط شيء ، ويجعل منه بؤرة ضوء ثانية ، قد ينطلق منها الضياء أيضاً .. ثم ، الأخ الصغير ، برأسه وتكوينه الذي لا ينم عن قوة أو حيلة يجعله في لحظة أكثر من مجرد مرافق ، والبطلان ، الحياة وهي تحاول أن تشق طريقها ... كل ذلك من أحداث عادية ، يومية ، تقع كل لحظة تحت أعيننا ، ولكن المهم التقاط اللحظة تماماً ومركزتها .. وهذا هو الفرق بين الفنان واللافنان بشكل موجز .. المواد الأولية نفسها ، البيئة ، الناس ، وحتى الحوادث ، ولكن من أين تنظر إليها ، كيف تستعملها ، ومتى ، وفي النهاية ماذا نريد منها .. هنا الخطورة ..

ويوسف نجح

٢- شيخوخة بدون جنون :

عم محمد آخر ، يمثله كثيرون ، رجال كبروا في السن أكبر مما ينبغي ، وبدل أن يستلقوا على الفراش وينتظروا نهايتهم ، فإنهم يقبلون أن يقوموا بأعمال حانوتية .

ويبدو هؤلاء الناس متشابهين لدرجة أنهم أكثر ما يكونوا شبهاً بالأطفال الصغار الذين ولدوا البارحة ، ليست عليهم سمات الحياة ، ليست لديهم علامات فارقة ، يركضون ، ويضحكون ، يقسمون أيماناً أن الوفاة عادية وبدون جنون ، وينتظرون دورهم لكي يموتوا . لفرط الرتابة التي تميز حركاتهم يظن الإنسان أن لا شيء في هذه الدنيا يحركهم ،

وهم رغم قيامهم بواجباتهم بسرعة ، إلا أنهم يقومون به دون إحساس من أي نوع ، هكذا يظن الإنسان ، وهكذا يرى وجوههم وهي تستجيب لنكتة الطبيب دون أن تشعر بالذنب ، وهي توافق على أن يكون لها اسم واحد ، وهي تقلب الجثث وتشعر شعور الموتى من أجل إثبات أن الوفاة طبيعية وليس نتيجة سم أو حادث ، هؤلاء الناس يبكون عندما تموت قريباتهم ، لا يستجيبون للمزاح ، أو للضحكات ، وتنزل دموعهم عندما تتلقى الصفعات ، وأخيراً تتحرك للقيام بأكثر من الواجب عندما يموت فرد من أفرادها .

من هم هؤلاء الناس ؟ فراشون ، أذنة متقاعدون ، عسكر متقاعدون ، ناس لم يعد لهم أحد في هذه الحياة ، وليس عندهم مصاريف من أي نوع ، جفت عظامهم ، قصرت ملابسهم ، فقدت ملامحهم ما يميزها بشكل خاص ويعني استقلالها ، وأخيراً فقدت رغبة الكلام لأنه ليس عندها شيء مهم تريد أن تقوله .

وحتى الركض الضعيف أمام الطبيب ، من اجل إفساح الطريق ، لتقليب الميت ، لوقف عربات الكارو أو إنزال أيدي الباعة للحظات كي يمر ، عندما يقومون بكل هذه الأعمال ، فإنهم يقوموا بها لإقناع المعلم أنه مازال بإمكانهم أن يكونوا نافعين ويؤدوا عملاً .

والنهاية .. عندما يموت عم محمد ، وهو أي واحد ، لا ترتفع أصوات النحيب لتودعه ، لا تبكي عين ، وحتى الملابس أو الأغطية تتحول إلى جرائد ألمانية قديمة ، وحول البيت كلاب ضالة ، والأرجل المتيبسة من الروماتيزم لا أحد يستطيع أن يحركها ، ولا حتى الميت نفسه .. عندما تصل الصورة القاتمة إلى نهايتها الحزينة يتحول المعلم نفسه إلى قبطان يغسل ويكفن العم محمد ، ويتول جلد الأمس ، صفعة الأمس ، إلى دمعة كبيرة و وداعية . وموكب الحانوتية ، الذي لا وجوه فيه ، وجميعهم أسماؤهم العم محمد ، موكب الحانوتية هذا يشبه وداعاً رسمياً للحياة كلها .

٣- طبلية من السماء :

كيف نستطيع أن نقول أشياء كبيرة وخطيرة على لسان المجانين والأولياء والأطفال الصغار ؟

كيف نستطيع أن نقولها كلها ، على أهميتها ، ويظل الشيء الذي نقوله أقصوصة أو قصة أو رواية دون أن ينزلق إلى الخطابة أو البرهان أو محاولة الإقناع ؟

يوسف إدريس في هذه القصة يريد أن يقول أموراً خطيرة للغاية : الجوع الفقر يساوي الكفر تماماً . هذا أولاً الله هذا الذي يجلس بعيداً عن البشر ، ويحكمهم ، لماذا لا يفعل شيئاً لإنقاذهم ، لماذا لا يطل برحمته لكي يقدر الناس على التحمل ؟ هذا ثانياً . وهذه الحياة البائسة الفقيرة في القرية المنعزلة التي لا تعرف السرعة ولا تأبه بها ، وناسها يكدحون من مطلع الشمس حتى مغيبها ، لكي يموتوا في النهاية موت الكلاب . الحياة في هذه القرية ، والبشر فيها لا يمتون بصلة إلى البشر إنهم أقرب إلى الدواب .

وجاء هذا الإنسان الضمير ، الذي يحاول أن يفتح عيون الناس على الحياة .

السرعة .. إنه يركض في الوقت الذي يسكن الناس ، ويعتبرون الركض حالة مرضية ، ولكن في النهاية يركضون وراءه حتى يصلوا الجرن في أطراف القرية .. لم يركض الصبية الصغار ، وإنما الشيوخ الوقورون ، كانوا من جملة من ركضوا ، ولكن بحكمة ووقار ، حتى وصلوا .

والله هذا الغامض المقدس ، البعيد ، الذي تقدم له دائماً القرابين ، لم يبق كما هو ، وإنما جاء الحاج علي لكي ينزع عن جبروته ، لينكأ غموضه وقداسته ، وليمزق الخوف الذي يمنع الناس من النظر إليه أو يخاطبه .. يخاطب الحاج بلهجة تهديد وتأنيب ويطلب منه طلبات محدده و عاجله ، إذا لم يلبها فإن غضب الإنسان ينزل عليه .. وهنا يكف الناس عن النظر إلى الله تلك النظرة الحائرة ، يتجرؤون على النظر إليه ، على انتظار معجزات ، على أن يفعل شيئاً !

والحياة الشاقة الصعبة التي تجثم على قلوب الناس ، لا يترك الشيخ أمرها يمضي دون أن يشتمها ، أن يقول فيها ما يستحق ، وأن يحاول إقناع الناس برفض هذه الحياة الذليلة التي لا تعني أكثر من ملء المصران ، ثم انتظار الموت .

هذه الأشياء كلها قيلت ، وبثقة حلوة ، وعلى لسان قديس أبله أو أبله وقديس والبراعة تكمن في القدرة على خلق التوازن بين الأشياء التي تقال ، والطريقة التي تقال فيها ، والناس الذين يقولونها ، وهذا التوازن رغم قدرته على خلق شحنات عاطفية جميلة ومؤثرة ، فإنه يبقى خطراً إذا أفلت من يد القصاص ليصبح وعظاً أو هذياناً دون معنى .. وقد أستطاع يوسف إدريس أن يخلقه ويحافظ عليه !

٤ـ اليد الكبيرة :

هبط من القطار وصل إلى قريته مرة أخرى . كان يريد أن يعيش بنفس الجو ويستعيد اللحظات كلها : أيام كان طفلاً ، أيام كان صبياً ، ثم لما كبر وأصبح يلبس البنطال الطويل .. ولما أبتعد عن القرية ، ولما عاد إليها كانت الذكريات والأجواء التي عاشها من قبل . وفي هذه الأجواء يلمس الدفء. ويستمع إلى أحاديث أبيه التي تشبه الأناشيد ، ويحتمي ، حتى كبره ، بهذه الخالة التي تنظر إليه نظرة تعتبره . كأنه لم يترك الطفولة أبداً .

في هذه المرة ، هبط من القطار وفي ذهنه أن يحيي كل الذين يعرفهم . أن يمشي على نفس الطرقات الترابية التي مشى عليها عندما كان صغيرا ، ولكن ما كاد يترك المحطة ، باتجاه البيت ذي الباب الصفيحي حتى قابلته خالته ، تترك الأشياء التي بين يديها كما كانت تفعل من قبل ، سلم ومشى ، وصل البيت . كان كل شيء قد تغير ، السقوف ، أرض الحوش ، الكنبة ، أعشاش الحمام ، النخلة التي كبرت وأكل النخيل الصغير ، والدالية التي ماتت من كثرة المياه ، ليس هذا كل شيء ، فإن الجو الدافئ الذي كان يقابله كلما وصل القرية ، افتقده منذ اللحظات الأولى ، كان البيت خاوياً لدرجة أن يكون أصم ، والحياة قد فارقته ولن تعود إليه مرة أخرى ، حتى الشمس وهي تنزف ضياءها كانت عبارة عن خيوط من الضياء المغبر الذي يشق النفس بالأسى أكثر ما يبعث في العين القدرة على الرؤية .

إن شيئاً هاماً وقع .. في الاسترجاع الذي لا يتعب لحياة الأب ، تبلغ القصة ذروتها ولو كانت الطريقة واضحة ، في كيفية وصول الخبر إليه ، لواجهنا قصة نادرة ، ولكن هذه الفجوة الصغيرة ، والتي قد تصدر من ذهن حزين ومتعب أكثر مما يدفعها المنطق ، هذه الفجوة لا تغير في التوتر ، في أهمية الخاصة الكامنة في القصة .

ماذا يعني الأب ؟ ماذا تعني الأم ؟ ماذا تعني العلاقة بين أفراد العائلة ؟ والسفر البعد ، ثم العودة مرة أخرى ، وكن المشاعر الصغيرة ، رغم ابتعادها ، تظل تثقل الصورة حتى تجعل منها لوحة ، وتجعل من الأب أكثر من يدين كبيرتين ، أكثر من صدر أكثر من كلمات . إنه الملجأ ، في الوقت الذي يفتقد الإنسان الأمان والحب ، واليد التي تشد دون أن تحمل مسماراً أو سكيناً .

هناك عشرات المشاعر المماثلة التي يمكن للإنسان أنم يحلق فيها ، المهم زاوية الرؤية ١٩٧١//٨/٣٠م .

٥- تحويد العروسة :

قصة عادية ، تتناول تقليداً كان سائداً في الشرقية ، ثم زال .

الشخصيات : المجتمع برجاله ونسائه وأطفاله في تلك المحافظة ؛ ثم عنبر رمز الماضي الذي يتصور أن الدنيا ما تزال في مكانها ، كما كانت قبل عشرين أو خمسين سنة ، ولكنها تكون قد تغيرت في هذي السنين ، بعد موت راعيه الأول ، ثم راعيه الثاني ، وهو الآن في كنف راع ثالث لم يعرف هذه التقاليد ، وإنما سمع بها منذ وقت طويل ، لكنه لم يعشها ولا يعترف بها .

عنبر هذا محاولة تشبث ، محاولة يائسة ومهزومة .

والشيخ رجب محاولة التوفيق بين الماضي والقدرة الفعلية على المواجهة .

رجل عادي ، ملك بضعة فدادين من التقتير والجوع ، يريد السلامة ، ولكن يدفع رغم عنه لأن يكون في المقدمة . والإنسان في المقدمة يواجه مواقف يجب أن يقول كلمة ، أن يتصرف ، والشيخ عندما يتصرف ينطلق من القدرة الحقيقية ، والواقعية ، لإمكانيات الناس الذين دفعوه ، ولذلك يأتي تصرفه محكوماً بهذه الإمكانيات ، ولكي يثبت أنه في المقدمة ، وأنه يستطيع أن يتصرف ، يوافق وتبدأ المشكلة من موافقته : كان يواجه الماضي ، وطبيعي أن يهزمه ، ولكن هزيمة التغير أكثر منها هزيمة القوة ..

وبانتهاء المشوار الأول ، تبدأ القصة تأخذ شكلاً كاريكاتورياً .. من أجل تنمية شخصية الشيخ رجب ، ومن أجل إثبات أن الدنيا تغيرت .. قد تكون قد نجحت ، ولكن ليس فيها من الحرارة .

قصة عادية فقط .

٦ـ حاثة شرف :

الحب هو العيب . كان . ومازال تقريباً ، في أغلب أجزاء هذا العالم المتخلف ، الحب محرم ، غير مرغوب فيه من قبل الآخرين كطريق للحياة والعلاقات . والناس منذ ولدوا حتى الآن لا يكفون لحظة واحدة عن الحب ، ولكنهم يحاولون أن يحبوا بسرية وتمويه ، وفاطمة بنت القرية الصغيرة امرأة قمحية ناضجة ، كل شيء فيها جميل يغني ، عيناها ، لون بشرتها ، صدرها الذي يقفز في الهواء ، لكي يضرب الرجال ، لكي يعذب الذكور ، حتى الأطفال الصغار الذين يحاولون أن يتعروا عندما يرونها لإثبات ذكورتهم المبكرة ..

فاطمة بمقدار ما هي مغرية مشتهاة ، مرغوبة ، بمقدار ما هي أمل وأمنية ، فإنها مستحيلة . لا يفكر أحد أن يتزوجها لفرط إغرائها وجمالها ، ولذلك تظل غلالة من الرغبة والحلم ، وهي تسير في أرض العزبة حاملة الأكل لأخيها الذي يخاف عليها ، ويخاف أن تقع الحادثة التي يخاف منها ، وغريب الوسيم الذي يغوي النساء ، يمثل رغبة كل الرجال ، ويمثل الفتوة الثاوية في قلوبهم . أغرى عدداً كبيراً من النساء ، والنساء بمقدار ما يخفن منه ، فإن هذا الخوف يكون طريق وقوعهن . وفاطمة ، تقع.

والعزبة التي كانت تنتظر الوقوع ، كل يوم ، والتي كانت تتلهف على أن تسمع أخبار هذا الوقوع ، وتستعجله ، متأكدة أن كل شيء سينتهي وكأنه لا وقوع بقوة قاهرة لا يمكن أن يقف في وجهها أحد .

ولكن عندما تقع الحادثة ، تفاجئ أهل العزبة كلهم ، وتبدأ الدراما تدق أعصاب الناس وحياتهم ، وينزف في الجو ريح تحمل رائحة الدم .فرج أخو فاطمة يشرب المعسل ويضع رأسه بين راحة يديه ويطرق كأنه امرأة تبكي ، وينتظر أن تمنحه قوة غامضة القدرة على التصرف ، التصرف المناسب ، ليس مهماً أن يكون القتل ، وليس مهماً أن يكون النصر ، ولكن المطلوب تصرف يلائم الحالة وينتهي إلى نتيجة.

وفاطمة بين نساء مشوهات الروح ، يعرفن كل شيء ، ولكن يردن أن يسمعن كل شيء بالكلمات ، وكأنه دقات جرس ، وفاطمة لا تعرف كيف تقول .. وفي النهاية عندما توافق أن يجري عليها الفحص وتستبعد الماشطة التي تدبر لقاء الرجال والنساء تحت ستار خياطة الملابس ، لتصبح أم جورج هي المرأة الوحيدة التي تستطيع أن تصدر حكماً . وتجر فاطمة . موكب يمتلئ حزناً وشماتة وغلاً وانتقاماً وطهارة وتلقى مثل حيوان مشاكس على السرير ويتبرع النسوة بأن يمسكن يديها وساقيها ، وأم جورج التي تحكم زوجها وتقوده إلى الكنيسة كل أحد ، لا تعرف كيف تواجه حالة مثل هذه ، ولكن الزغاريد التي يختم فيها هذا الفصل مثل نعوة موت .

صحيح أن فاطمة عذراء ، أو هذا ما تنتهي إليه أم جورج ، ولكن شيئاً هاماً يكون قد سقط وتلاشى في نفس اللحظة . وسقوطه يكون دون كلمات من أي نوع . هذا الشيء هو البراءة . براءة الحياة ، براءة العلاقات ، براءة الإنسان .

وفرج وهو يضرب أخته ، ويجبرها على أن تنام في تلك الليلة على البلاط ، كانت بداية تلاشيه ، أصبح يمثل الانحدار إلى الناحية الثانية ، بمعنى عدم قدرته نهائياً على أن يستعيد فاطمة أو يمارس عليها سلطاناً فعلياً .

وعبدون الذي يحاول إغراق قريب في البئر ، يريد من هذه المحاولة أن يؤكد على قوة ابنه ، القوة التي يفتقدها هو .

وعرف الناس .. وأصبح كل شيء واضحاً ، ومعرفة الناس سابقة ومؤكدة من قبل ، وكان ممكناً أن تستنتج أو يتسامح فيها ، ولكن من أجل أن يعذب الإنسان ويداس ، خلقت التقاليد ووضعت لها حواش وأصبح هذا الشيء الغامض ، الذي يسمى المجتمع ،أو المجموع أو الكتلة ، يريد خلقاً وحقوقاً خاصة به ، وعلى الفرد أن يدفع ، أن يدفع باستمرار ودون أن يسأل !

مشاهدة بائسة ، مليئة بالعذاب ، وهي تمثل مرحلة انتقال الناس من الظلام إلى الضوء من الماضي إلى الحاضر، فالحب الذي كان عيباً ، كان محرماً أصبح الناس يمارسونه بعلانية أكثر من السابق ، لكن لم يجدوا له تقاليد تعترف به وتصونه .. وفي هذه المرحلة يجب أن يدفع ثمن لكل شيء !

نهاية حادثة شرف تمثل قوة إضافية !

فاطمة ما تزال الأنثى المرغوبة ، الطاغية الأنوثة ، ولكن أصبحت عيناها تنظر بجرأة حتى لأخيها ، وتنفض عن نفسها غبار اليد التي تمتد وتتطاول بعد أن حكمت على المجتمع حكماً مبرماً ، وفقدت براءتها .

وغريب الذي أقسم أن يكون عادياً ، بسيطاً ، لا يغوي النساء ، التزم فترة بهذا القسم ، ثم تخطاه وعاد سيرته الأولى ، وبدأ يعتبر كل امرأة حلالاً له ، لا فرق بين كبيرة وصغيرة ، قريبة أو بعيدة .. ما عدا فاطمة التي ظلت مستعصية عليه ، وكأنها تمثل شيئاً مستحيلاً !

٧- سره الباتع :

هذه مجموعة قصص ، بطولها وتنوعها ونهايتها .

وإذا كان السلطان حامد بداية معركة صغيرة بين طفل صغير والامتحان ، عن طريق الشموع ، فإنها تنتهي بأن يصبح معركة وطنية ، ترجع إلى الماضي ، أيام نابليون وجنرالاته ، ولها امتداد حتى الآن .

الطفل بداية الدنيا ، الجبانة وهذا المقام المليء بالشمع السائل ، الرفض للتقليد وبداية التفتح ، الجد الذي يستقبل الغرباء ويستمتع بالمحرمات المتمثلة بالقهوة الممنوع منها ، وهذه العلاقة بين الطفل وجده وبداية الأسئلة الكبيرة .

والضياع في هذه الحياة ، يتذكر في لحظة كل الأشياء التي نسيها سنوات ،وينسى في لحظة أخرى كل ما يجب أن يتذكره ، وتثقل مشاكل كل يوم ذاكرة الإنسان ، حتى تصبح ذاكرة جديدة ليس لها علاقة بالماضي ، وما هي إلا لحظة أخرى حتى ينفجر الماضي مرة ثانية . ويكبر الطفل ويتيه ، وتبدأ أسئلة تأخذ طابعاً جديداً مختلفاً .

السلطان حامد ، ليس هذا المقام المعتم ، إنه الأشباح واللفة الخضراء والعذاب . من هو ؟ لماذا هو موجود ؟ من بنى هذا المقام ولماذا بناه ؟ وفي رحلة الصبا الأولى يكشف الطفل الكبير أن السلطان حامد في كل الأمكنة ، أو على أقل تقدير في أكثر الأمكنة ، ويأخذ السؤال صيغة جديدة أقرب إلى العجب والخوف ، والذاكرة هذا الغربال الذي يستقر فيه كل شيء يضيعه يغيب ، يختفي ، وفي لحظات أخرى يتمزق ، وتنبثق على السطح الأسئلة ، بطريقة جديدة ، السلطان بين الرفض ورغبة الاكتشاف ، والسلطان بين الرمز الملوث والرمز المقدس ، ويواصل حياته بهذا الاطمئنان القدري .

وبطريقة اقرب إلى جنون المغامرين واكتشافه تظل ألغاز السلطان حامد تلوب في ذاكرة الطفل الذي كبر الآن حتى أصبح رجلاً ، ويحمل معه ألغازه ، ولكن بطريقة المغامرين واكتشافه في كل مكان . عن طريق الوصول والغرق في ذات جهولة لا تكشف عن نفسها إلا لمن يفتح عليهم الله ، وإلى الرجل الغريب الذي رفض أن يكون صاحب أطيان أو موظفاً حكومياً ، وبدأ مع الشركات ، لكي يصبح ممثلاً لعقل جديد ، لكن بشروط سيئة ، وطريقته اختبار العالم بشكل بدائي .. ثم هذا الغريب الذي ينزل ضيفاً عند جده ، وهو في طريقه لرحلة مجهولة وصوته وهو يردد مدد ، مدد ، وحديثه الذي يشكل بداية لحل هذا اللغز ، ولكن بطريقة مثيرة ومعذبة .. ثم الغرق مرة أخرى في الحياة ، وسفر الذاكرة البعيد ، حتى تكون تلك الصدفة البلهاء التي حملت امرأة إلى المستشفى ، وبداية الاكتشاف .

ورسالة الأثري الذي أصبح محامياً عن السلطان مصادفة .. الرسالة التي تقول الكثير ، على السلطان والشعب السلطاني .

هذه القصة القصيرة الطويلة تحتاج إلى دراسة مستقلة .

لا بد فيها نقاط عديدة تشكل قوة وضعفاً في وقت واحد .

فهي قوية حين تظل رموزها تمثل نزعة الاكتشاف المثيرة الغامرة في حياة الإنسان ، وعلى طوال مسار حياته لا ينساها نسياناً حقيقياً . وهي الناس بأنواعها وعقلياتهم المتفاوتة ، سوء من حيث علاقتهم بالماضي أو تمثيلها لارتباطات معنية . وهي نموذج لبطولة الناس البسطاء في طريقة الرفض والمقاومة .

ولكن في الجانب الآخر .. صفة أكثر مما هي اكتشاف، صفة وضعت في قلب قصصي ، كان أكثرها خط هذا الاكتشاف المفاجئ لامرأة كان ممكناً ألا توجد ، ألا تتكلم ، ولامرأة بمواصفات معينة ، كان يمكن أن تكون غيرها ، لا تهتم بتتبع المراجع التاريخية ، ولا ترسل ما كتب حول الموضوع في النهاية .

إن الرسالة التي تكشف كل هذه الخوارق جاءت من نقطة ، من مكان ، معتم ، لو أكتشفها في دار الكتب ، عند شيخ في قرية بعيدة ، في صدر أحد الغرباء الذين يمرون على الجد ، في المجتمع العلي .. لو أن هذا تم بهذه الطريقة .. ولكن !

ملاحظة :

من الأشياء الملفتة للنظر أن كل لحظة تؤخذ في هذه القصة مستقلة ، وكأن لها علاقة باللحظات الأخرى ، وكأنها عالم مستقل له أركانه وجوه .. ولكن في ثانية تقوم الواو بحفلة ربط رائعة ، قلما تتوفر لهذا المرض في أماكن أخرى أو لدى أشخاص آخرين . ١٩٧١/٨/٣١م .

ثانياً :لغة الآي آي

١- حالة تلبس :

مرة أخرى يعود يوسف إدريس إلى الحياة اليومية البسيطة ، حياة إنسان ما ، يمكن أن يكون أي إنسان . ومن خلال لحظة ما ، حدث ما ، يمكن أن يكون لحظة في حياة أي واحد ، وحدث لأي واحد ، يبدأ يراقب ويرصد ، ثم يسجل ، بعين مليئة بالحنان والتفاهم .

فتاة من سوهاج ، يمكن أن تكون من أي مكان ، صغيرة ، سنة أولى جامعة ، في فناء الكلية ، وفي هذا الفناء الداخلي المليء بالظلال والرطوبة ، والذي لا يصله أحد ، تسحب الفتاة من حقيبتها الكبيرة علبة سجائر ، وتمسك بيدها الأخرى الكبريت ، تريد أن تدخن سيجارة .

آلاف البنات ، ملايين ، يدخنَّ . ولكن عملية الرصد ، كانت هذه المرة ، من غرفة العميد ، وهو يتابع هذه اللحظات الكبرى .

سحبت العلبة ، أمسكتها بيدها ، فتحتها ، بأصابع مرتجفة سحبة سيجارة فلتر ، أمسكت السيجارة ، بللتها ، قربتها من فمها ، أخرجت علبة الكبريت ، فتحتها ، أخرجت العود ، وبطريقة النساء أولعت وسحبت نفساً .. كان النفس عميقاً مرتعشاً ، امتصته كله إلى الداخل ، نزل إلى أعماقها ، وسرى تحت جلدها حتى وصل إلى أصابعها .. ويتابع هذه الجزئيات الصغيرة غير المنظورة ، وبعيون عميد الكلية ، الذي يركض مثل بندول الساعة المتعبة بين زوجته ورئيس الجامعة .. ويفكر بالفصل ، بالضرب ، بآلاف العقوبات الأخرى . وهي ما تزال تدخن ، كل نفس ، كل حركة صغيرة للسيجارة باتجاه الفم ، زمن مديد مليء باللذة والعذاب معاً .

إن عبقرية القصاص أن ينظر إلى الأشياء العادية نظرة غير عادية ، لأن في كل عادي شيء غير عادي ، والمهمة الأساسية هي اكتشاف غير العادي من العادي وتركيز الضوء عليه ، لكي تبرز دقته وقوته وغير عاديته .

وهذا هو الفرق بين قصاص وآخر ، قصاصون آخرون يفتشون عن الأحداث الكبرى ، الخارقة ، ولديهم مواد أولية كبيرة الحجم ، ثقيلة ، ولكن الأحداث ، في النهاية ، عبارة عن مواد أولية كبيرة الحجم وثقيلة ، دون أن تتحول إلى لحظات مكهربة تمشي على أسلاك متوترة خطيرة .

المهم زاوية الرؤيا ، لحظة المعالجة ، طريقة المعالجة ، وبعدها إلى حادث مهما ، كان صغيراً وعادياً يتحول إلى حادث كبير وغير عادي !

٢- الزوار :

مرأة بائسة ، عانس ، زارت عشرات الناس في حياتها ، وقدمت خدمات كثيرة ، ولكن هذا كان في الماضي أما الآن فإنها ترقد ، ومنذ بضعة شهور في مستشفى ، لا يزورها أحد ، ولا تنتظر أحداً بعد أن مرت الأيام ولم يأت أخوها أو الذين زاروها .

وإلى جانب هذه المرأة التي لا يزورها أحد ترقد امرأة أخرى ، تضيق بكثرة زوارها ، وتعلن هذا الضيق بكلمات قاسية مباشرة .

هذا الإطار .. ولكن ما تكاد الأيام تتتابع بطيئة مشحونة بانتظار يائس ، حتى تتغير الصورة ، وقد دخلها خيط صغير:

المرأة الأولى ، مسكينة ، تبدأ تقدم صغيرة لزوار مصمص ، تبدأ الخدمات من الخروج من الغرفة لكي يستعمل سريرها مكاناً للجلوس ، ويمتد إلى العناية بالأطفال وتقديم الكراسي ، تنتهي بأن تعتبر زوار مصمص زوارها ، فتبدأ معهم الأحاديث ، حتى لا يجدون وقتاً يقولون فيه كلمة لمن جاؤوا يزورونها .

بدأت سكينة تعرف جميع زوار مصمص ، تعرف أسماءهم وصلة القرابة بينهم وبين مصمص ، وبدأت تنتظر زيارتهم بدهشة ، وكأنهم جاؤوا يزورونها .

وهنا تختل العلاقة بين المرأتين . سكينة تقوم بواجب ، رتب لها من الأيام حقوقاً ، تحاول أن تستمتع بهذه الحقوق ، استمتاعاً صغيراً مشروعاً ، لا يتعدى كلمات تتبادلها مع هؤلاء الزوار ومصمص التي كانت تضيق بعدد الزوار وغلظتهم ، بدأت الغيرة تأكلها الآن ، عندما تشعر أن هؤلاء الزوار لم يقولوا لها كلمة طوال وقت الزيارة .

وتبدأ رحلة العذاب ، ولكنه عذاب محكوم بالمرض والعزلة وهذه العلاقات التي أصبح لها طبيعة خاصة من العشرة الطويلة والآلام المشتركة ، ورغم ذلك فإن كل الشروط التي تغذي العذاب قائمة تنتظر لحظة التفجر ، تعبر عن نفسها ؛ ولما تجد مصمص الفرصة مناسبة ، تبدأ رحلة الانتقام ، ولكن في لحظة أخرى ، لحظة يقظة الإنسان ، تحتار كيف تنادي سكينة ، تبدأ معها معركتها ، هل تناديها بإسماً مجرداً ؟ هل تقول لها يا بنت سكينة ؟ هل تستعمل تعبيراً ثالثاً ؟ تحتار في ذلك ، وتكون هذه الحيرة بداية الإنسان وبداية التسليم .. وبعد صراع طويل حالت ، دون زمن ، تمر خلاله كل صور وأسباب المعركة ، تنتهي إلى لا شيء .. بقى أسمعي يا ..

واحتارت

لا .. ولا حاجة ، ده كانت كلمة كده وعدت ..

٣ـ قصة ذي الصوت النحيل :

مرة أخرى المجنون يتكلم ، ولكن هذا المجنون مهزوم، جن لأنه هزم ، والهزيمة لأنه فقد ما كان يعتبره حقاً له . أصبح ينظر إلى الناس كأنهم أعداء ، وأشد ما يهوله العيون . كانت عيون الناس الذين تحته ، وجميع الناس تحته ، عميقة ، لاسعة ، تبتلع وتغرق ، لأنهم لم يروا شيئا من قبل ، أول شيء رأوه وأهم شيء هو .

وبدأ يهذي ويتصور أنه محاصر ، محاصر بالعيون ، تريد أن تطبق عليه ، أن تقتله ، ولا نجاه له أبداً .

أغرى البواب ، وحارس الكراج ، أغرى الناس أن يقولوا له ماذا يفعل الناس تحت ماذا يريدون منه ، ولكنه لم يصل ، ضاعت جهوده عبثاً .. أما أخوه فقد حاول أن يقول له : أصبر الدنيا أصبحت هكذا ، وخلاصاً من هذا المأزق .. ارحل . فتش عن بيت آخر ، ولكنه لا يريد أن يسلم وجاء وقت أصبحت امرأته من الناس الذين تحت وينظرون إليه تلك النظرة التي تخيفه .. وهزم .

قصة متوسطة ، تحاول أن تعبر عن مرحلة معينة ، وأثر هذه المرحلة على الناس . زاوية الرؤية متواضعة .. وقد لا يكون مطلوباً من قصة قصيرة أكثر من ذلك .

٤- الورقة بعشرة :

ما هي السعادة ؟

رجل متنغص الحياة في البيت مع الزوجة والأولاد والرتابة ، يريد في ذكرى ميلاد زواجه أن يفعل شيئاً ليكسر طوق الملل والتفكير المسيطر على حياته مع زوجته ، لم يجد هدية يقدمها إليها لتكون جسراً للأمن .. ولم تكن الهدية إلا ورقة نقدية كتب في البياض الذي فيها كلمات حلوة بخط أنيق .

فكر ، تردد ، أعتبر الهدية مزحة سمجة، لأنها لن تغير في طبيعة الحياة التي صنعتها الأيام ، ولا يمكن لهدية ، حتى لو كانت ورقة نقدية من فئة العشرة جنيهات أن تفعل شيئاً ..وهذا ما أصطدم به ، في البداية ، ولكن في لحظة إشراق ، انبثقت فجأة في عقلي الزوج والزوجة معاً ، تعانقا بكيا معاً ، تذكرا الحياة الماضية ، حياتها المشتركة ، واكتشفا السعادة التي يعيشون فيها !

محاولة متعبة لاكتشاف السعادة ، لم أشعر أن يوسف إدريس استطاع أن ينجو من لحظات الضعف التعيسة التي قادت خطواته في هذه الذاكرة المقفرة ، وبالتالي ، لا أعتقد أنه سعيد بما فيه الكفاية ، إلا إذا كانت تذكره بالقصص الأحسن التي كتبها.١٩٧١/٨/٣١م

٥- فوق حدود العقل :

يبدوا أن مهنة الطب تعلم الإنسان أن ينظر إلى الأمور الصغيرة والداخلية ، لأن بداية علاقة الطبيب مع المريض أن ينزع عنه ملابسه ويسمع دقات قلبه ، ومن خلال الدقات يكتشف العالم الآخر ، غير عالم أربطة العنق والقميص والحذاء ، وفي العالم الآخر تكمن الحياة الحقيقية ، باكتشافها يمسك طرف الخيط الحقيقي .

هكذا بدأ تشيخوف كقصاص ، بدأ من خلال نظرات الطبيب الفاحصة التي تكشف أين موضع الألم ، ويوسف إدريس يسير في نفس الطريق ، طريق أن يمسك بالسماعة . يضعها على القلب ليسمع ويكتشف .

وهذه القصة ، الفاجعة الضاحكة ، يبدأ في غرفة مأمور الصحة الذي يكتب استمارة إنسان ، وكتابة الاستمارة تعني إما أن يحال إلى مستشفى المجانين أو أن يبقى في صف العقلاء .. وبعد أن تنتهي الإجراءات وتكاد القضية أن تنتهي ، تستوقفه ، لاستكمال الشكل ، معلومات إضافية ، كان من الممكن أن يسوغها أي إنسان آخر . ومن خلال هذا الاستدراك تبدأ المأساة تتكشف !

رجل في بداية عمره ، لم يمض على زواجه سوى فترة قصيرة ، يقف أمام الطبيب مكتوف الأيدي لكي يستكمل شكلياً إجراءات فحصه وإحالته إلى مستشفى المجانين ، وإلى جانبه يقف جندي ملمع مريب الوجه ، وبعد أن يتعب الطبيب من الأسئلة ويدون في الاستمارة المعلومات ، ويكاد ينتهي الأمر ، تبرز الخانة الصغيرة الفارغة ، خانة قريب المجنون ، والشرطي الذي جاء به . وهنا تتحول القضية إلى مأساة . انتهى تحديق المجنون إلى الأرض ، وكأنه ينظر إلى منتصف الكرة الأرضية ، لتبدأ الأسئلة نفسها ، ولكن من جديد ، وبضوء جديد .

امرأة تدعي أنها زوجة الجنون ، رسمت حواجبها بدقة ، وضعت المساحيق ، وتحفظ الكلمات إياها ، كلمات الرثاء والتفجع ، وفي اللحظة التالية يدخل رجل ثالث ، يبدو لأول وهله أن ليس له علاقة ، ولكن في اللحظة يتبين أنه الأخ الثالث والذي كان مريضاً بالأعصاب فعلاً من قبل ، ولكن يعز عليه أن يترك أخاه الأصغر ، لأخيه الأكبر ، يدخله مستشفى المجانين من أجل ثلاث قراريط ميراث من الأرض .

يحسن عدم تلخيص القصة أكثر ، لأنها غير قابلة للتلخيص أولاً ، ولأن مقاطعها من الثقل والتأثير بحيث يجب أن تقرأ كل كلماتها . ومن خلال الكلمات ، تتغير المواقف ، تتغير الوجوه ، تتغير معاني الأسئلة والإجابات ، يصبح الذهن المحايد ، الذي لا يطمع بثلاثة قراريط ، يسمع الإجابات التي كانت كافيه لإرسال إنسان إلى مستشفى المجانين ، تصبح نفس الإجابات طريق إنقاذ إنسان .

حتى محاولة إنقاذ الأخ الأكبر ، المفتري ، الذي يريد تحقيق طموحه بامتلاك فدان كامل من الأرض ، تصبح هذه المحاولة كبيرة ، حتى لتغيير موقف الطبيب البارد القاسي .

هذه من القصص القليلة ، على صغرها ، التي تحمل شحنة مأساوية هائلة الأثر .

٦- هذه المرة :

السجن والحب أناشيد يوسف إدريس التي يترنم فيها بشوق وعذاب ، مثلما ترنم آرغون بعيون إلزا .

والسجن هنا ليس الجدران والباب القاسي الكبير الذي لا يفتح أكثر من ذلك ، قبل ذلك وبعده ، السجن طريق داخلي لاكتشاف النفس تبدأ الشكوك واللهفة والحيرة والانتظار ، وتبدأ رحلة الصمود أو السقوط .

ومن خلال هذه القصة ، جانب منها ، تدوي صرخات العسكري الأسود ، بدوي مسحوق الهمس ، تدوي عذابات الليالي الطويلة ، التي تصل بعذابها حدود قصر ديستوفسكي في ذكريات بيت الموتى .

وهذه القصة التي كان السجن إطارها ، ونفح رطوبة شتائية في العلاقات بين السجين وزوجته ، فجر في لحظة أناشيد الحب المخنوق ، والشكوك المدوية .

ليست هذه قصة ، إنها أنشودة عذاب ، أنشودة بكل معنى الكلمة ، سريعة ، متوترة ، مترنمة ، تريد أن تمزق ، أن تصرخ . تريد أن ترفرف وتفاخر باستقلالها وقوتها أن تثبت شيئاً ، أن تعبر عن شيء . لم يكن إدريس بارعاً في اختيار لهفة الكلمات مثلما هو في هذه القصة .

لم يعد الحب علاقة بين رجل وامرأة ، بين رجل وزوجته ، أصبح شيئاً مستقلاً تماماً يعربد وحده ، يكتشف ، يتسلق ، جدران السجن ، يفلت من العيون ، من الشفاه ، من أشياء ليس لها أسماء أبداً .. بالعربدة والتسلق يضيع ، لا يصبح علاقة مباشرة ، وإنما أكثر من ذلك وأقوى، وهذا الإحساس غير المنطقي ، الذي لا تعبر عنه الكلمات يصبح قانوناً أقوى من القوانين المنطقية وأصلب منها ، يريد أن يصل ، أن يثبت ، أن يعبر عن.. لا أعرف ، صرخة مجنونة في سكون أبدي مدمر لا تصله الشمس ولا تقربه صلاة المصلين ، إنها تنبت فجأة في مكان ما ، ليست فسفوسة على طرف الفم ، إنها عذاب ولد في لحظة ليس لها علاقة بالزمن ، ونمت بسرعة حتى سيطرت ، ثم بدأت تذوب ، تتراجع ، تريد أن تنتهي ، ولكن لا تستطيع . والكلمات التي قيلت ، والتي قيلت بشكل معين أزمت الموقف أكثر ، ودفعته إلى ذروة التوتر أكثر من قبل . أصبح قوياً .

وربما كانت هذه القصة من أجمل القصص التي تصادف الإنسان في حياته ، وأية كلمات لا تعني أكثر من محاولة إفساد لها ! ١٩٧١/٨/٣١ .

٧ـ لغة الآي آي :

بدا لي عنوان هذه القصة وعنوان الكتاب كله ، مثيراً؛ مثيراً للرفض وحتى للاشمئزاز ، لأني أحسست في البداية أنه من قبل الدلع ، وأقرب إلى الفنطازية منه إلى شيء جدي . لكن لا يكاد الإنسان يشرع بقراءة هذه القصة ، يحس بعالمها حتى يتملكه الخوف ، يبدأ باكتشاف لغة جديدة أكثر قدرة على التعبير من اللغات المتداولة ، من كلمات التفجع والاغتراب والعذاب التي يصطدم بها الناس أينما ذهبوا .

إنسان يريد أن يستبقي شيئاً من طفولته ، حاول ذلك من خلال الاسم الذي أطلقه على أبنه ، ولكن ظل يشعر أن شيئاً ينقصه . تعلم ، حصل على الدكتوراه ، أصبح رئيساً في معهد ، إنساناً مرموقاً ، ولكن شيئاً قوياً يشده إلى ذلك الماضي ، وإلى ذلك الوجه بالذات الذي فجر فيه الرغبة والطموح منذ وقت مبكر .

فهمي ، حالة تقطع بين الواقع والضمير . بين الرغبة والمستحيل .

الطفل الذي كان يجلس معه على نفس المقعد ، وهو صغير ، ظل شبحه يطارده ، يدفعه ،حتى ظن نفسه أنه رحل ولكن هذا الظن سقط وأنهار في لحظة ، وهو يرى فهمي ، ذال ، مريضاً ، ووجهه متدل إلى الأرض ، وعندما سحبة من يده وأدخله إلى بيته مثل لص ، وأوصى الخادم أن يرعاه ، ووضعه في المطبخ ،و أصطحب زوجته إلى المسرح لكي لا تقضي ساعة مع مريض ، محاولات الهروب هذه لم تجد .

بدأ الأمر ، فجأة . الأرق علة صغيرة فتحت الباب لعلة كبيرة . وهذا الإنسان الجثة التي يعربد فيها الألم ، يتحول إلى صرخات لا تدخل كلماتها في قاموس ، وقف شامخاً مثل ضمير استيقظ فجأة ، أصبحت الآهات ، أصبحت الآي بالأصح ، عذاباً ، شيئاً أكثر وأقوى من كل كلمات اللغة العربية ، بما فيها من ألم وتفجع وصراخ واستقامة .

هذه قصة مجنونة ، نعم مجنونة . والكلمات مثل علامات طريق ، لا تعني أكثر من دلالة متواضعة لحالة يعصب حصرها وتحديدها .

إنسان مصاب بسرطان المثانة ، لا يخف ألمه ، دواء أخترعه بشر . يصرخ ، يمزق الفراش ، يعض يديه ، يتلوى ، يريد أن يصعد إلى قمة ويلقي بنفسه ، يزحف مثل كلب ، يريد أن يتخلص ولو لحظة من العذاب .. ولا أحد يستطيع أن يعاونه .. والطب لم يستطع شيئاً سوى أنه .. للزوجة المدللة التي لا تفهم طفولة هذا الذي يحاول أن يفعل شيئاً لم تشارك فيها ، لم ترها وحتى لم تسمع بها ، وهو مشدوه يريد أن يعيد ماضيه الضائع ، طفولته ، يريد أن يسترجع هذا الوجود التي طالما دفعه في أيامه الماضية كلها .

أبشع صراع يمكن أن يحصل ، مقاومة الألم الأصم ، مقاومة يائسة ، مقاومة لا تسلم ، والإنسان الآخر ، الذي يحاول جزئياً أن يشعر بالألم ، يريد أن يفعل شيئاً ، أن يسمع صرخات الألم على أقل تعديل .. ويبذل جهوداً إلى أن يصل إلى هذه اللذة ، ويخلق أول مرة ، ويخلق للمرة الألف ، ولكنة في النهاية يبول على الشهادة والزوجة والمركز الاجتماعي والجيران ، ويحمل كتلة الألم ويركض بها لعله يستطيع أن يعمل شيئاً .

وفي النهاية تبرز لغة الآي ، لغة الوجع الموحش الأصم ، أقوى من كل كلمات العربية الفصحى ، وأغنى من سيبويه وابن المقفع ! ويجدر بالإنسان أن يعتذر للأحكام السريعة والمسبقة .

١٩٧١/٨/٣١م

عبد الرحمن منيف

---

* نزوى (عُمان) ، العدد ٥٨ ، (إبريل ٢٠٠٩م) ، ص٩-١٧ .

حقيبة أبي *

بقلم / أورهان مابوق

تعريب / عزيز الحاكم

قبل وفاته بسنتين كان أبي قد أودعني حقيبة صغير معبأة بكتاباته ومخطوطاته ودفاتره ، ثم قال بسيمائه الساخر المعهود إنه يريدني أن أقرأها فيما بعد ، يعني بعد موته :

ـ اطلع عليها ، فلربما وجدت فيها ما هو صالح للنشر . ولك أن تختار .

كنا في مكتبي ، محاطين بالكتب . طاف أبي بأرجاء الغرفة وهو ينظر حواليه ، كما لو أنه يسعى إلى التخلص من حقيبة ثقيلة مزعجة ، دون أن يدري أين سيضعها . وأخيراً وضعها خلسة ، وبكل هدوء ، في أحد الأركان . وما أن انصرمت هذه اللحظة الشائنة – التي لا تنسى – حتى استعدنا خفة أدوارنا المعتادة وهزءنا النزق ، وتحدثنا كالعادة في توافه الحياة ، وحول بعض المواضيع السياسية التي تهم تركيا ، وفي كل المشاريع التي لم تنجز وشؤون أخرى لا أهمية لها .

اذكر أني حمت حول الحقيبة لبضعة أيام بعد وفاته من غير أن ألمسها . كنت أعرف منذ طفولتي هذه الحقيبة الجلدية السوداء ، بقفلها ودعاماتها المبعوجة . كان أبي يستعملها في أسفاره القصيرة ، وأحياناً يحمل فيها بعض الوثائق من البيت إلى مقر عمله . أذكر أني وأنا طفل فتحت هذه الحقيبة وفتشت في متاعه الذي كان ينبعث منه أريج عطر زكي وعبير البلدان الأجنبية . كانت هذه الحقيبة تمثل بالنسبة لي أشياء كثيرة مألوفة وجذابة وثيقة الصلة بماضي وذكريات طفولتي ، ومع ذلك فأني لم أتمكن من لمسها . لماذا ؟ لا شك في أن مرد ذلك إلى ما تحتويه من أمور هامة وغامضة .

سأتحدث الآن عن معنى هذه الأهمية التي ترتبط بعمل يقوم به شخص ينزوي في غرفته ، ويجلس إلى طاوله أو في ركن ما ، كي يعبر عما يخالج نفسه بواسطة القلم والورق . وهذا ما يعرف بالأدب . لم أتمكن أبداً من تناول حقيبة أبي وفتحها غير أني كنت أعرف أن بها بعض الدفاتر ، إذ سبق لي أن رأيت أبي يكتب فيها ، ولم تكن تلك المرة الأولى التي أستشعر فيها ثقل ما تحتويه هذه الحقيبة ، فقد كانت لأبي مكتبة كبيرة ، وفي شبابه أواخر الأربعينيات كان يرغب في أن يصبح شاعراً في اسطنبول ، كان قد ترجم أشعار ((فاليري)) إلى التركية ، لكنه أبى أن يواجه متاعب الحياة المكرسة للشعر في بلد فقير ، حيث يندر عدد القراء ، . وكان أبوه – جدي – مقاولاً ثرياً ، فعاش أبي طفولة ميسورة ، ولذلك لم يكن يريد أن يتعب نفسه بالأدب . كان يعشق الحياة بكل مباهجها ، وكنت أتفهمه .

ما كان يمنعني ، قبل كل شيء ، من الاقتراب من حقيبة أبي هو خوفي من ألا يعجبني ما كتب . ومن المؤكد أنه هو نفسه كان يرتاب في ذلك ، ويستبق الأمر فلا يأخذ ما في هذه الحقيبة مأخذ الجد . وهذا الموقف كان يحزنني ، أنا الذي كنت أكتب منذ خمسة وعشرين سنة ، إلا أنني لم أكن أضمر لأبي أي حقد على موقفه العابث من الأدب .

وكان خوفي الحقيقي ، وما يرعبني حقاً ، هو أن يكون أبي كاتباً جيداً . وبالفعل فهذا الخوف هو الذي كان يمنعني من فتح الحقيبة . بل إني كنت عاجزاً عن الاعتراف لنفسي بهذا السبب ، لأنه إذا ما خرج من الحقيبة عمل أدبي عظيم سيكون عليَّ أن أعترف بوجود شخص آخر ، مختلف تماماً ، في داخل أبي . كان ذلك مرعباً . ورغم أني كنت في سن متقدمة إلا أني كنت حريصاً على أن يظل أبي هو أبي ، لا أن يكون كاتباً .

وفي رأيي أن المرء يصبح كاتباً حين يكتشف ، بكامل الصبر وعلى مر السنين ، الشخص الآخر الذي يقيم في دواخله ومصدر حياته الثانية . فالكتابة عندي لا تخص الرواية والشعر والتقاليد الأدبية ، بل ذلك الرجل الذي ينزوي في غرفة ما ، وحيداً برفقة الكلمات ، وخلال ذلك يرسي أسس العالم الجديد . قد يستعمل هذا الرجل ، أو هذه المرأة ، آلة كتبة أو يستعين بحاسوب أو يقضي ، مثلي ، ثلاثين سنة في الكتابة بالقلم والورقة ، وأثناء الكتابة قد يدخن ويشرب القهوة أو الشاي ، وبإمكانه من حين لآخر أن يذهب إلى النافذة ويلقي نظرة على الخارج أو على أبنائه الذين يلعبون الكرة في الشارع ، أو على بضع أشجار أو منظر طبيعي ، إن كان محظوظاً ، أو على حائط صلب .

قد يكتب شعراً أو مسرحاً ، أو يكتب مثلي روايات . وكل هذه التنويعات ثانوية إذا ما قيست بعملية الجلوس أمام الطاولة والانغماس في الذات . فالكتابة تعبر بالكلمات عن هذه النظرة الجوانية ، عن الانتقال إلى أغوار الذات والاستمتاع بفرحة استكشاف عالم جديد بكل أناة وعناد ، وكلما طال جلوسي أمام الطاولة أضفت الكلمات إلى بعضها فوق هذه الأوراق البيضاء ،وبمر الأيام والشهور والسنين أشعر بأني أشيد هذا العالم الجديد كما تشيد القناطر والقباب ، وأكتشف في دواخلي شخصاً آخر .

الكتابة بالنسبة لنا – نحن الكتاب – هي الأحجار التي نبني بها وباستعمالنا إياها ومقارنتها ببعضها ، وسبرها تارة أخرى من بعيد ، أو بوزنها ومداعبتها بالأنامل والقلم تارة أخرى ، يتسنى لنا أن نضع كل حجر في مكانه ونشيد لسنوات طويلة ، بكل إصرار وتأن ، من دون أن نفقد الأمل . وفي اعتقادي أن سر مهنة الكاتب لا يكمن في وحي مجهول المصدر ، بل في العناد والصبر . ثمة عبارة تركية لطيفة توصي بـ ((أن نحفر في البئر بإبرة)) ، ويبدو لي أنها قيلت في حقنا نحن الكتاب .

لقد خفت أن أفتح حقيبة أبي وأقرأ دفاتره ، لأن كنت أعلم أنه لم يكن قادراً على مواجهة الصعوبات التي كان علي أن أجابهها .

فهو لم يكن يهوى العزلة ، كان يحب الأصدقاء والغرف المملوءة ودعابات المجتمع . لكني بعد ذلك توصلت إلى استنتاج آخر مفاده أن الصبر والزهد ، وكل تلك التصورات التي رسمتها لنفسي قد لا تكون سوى أحكام شخصية مسبقة مرتبطة بتجربتي الخاصة وبحياتي ككاتب ، لأن هناك من النوابغ من يكتبون في قلب الحياة الزاهية والصاخبة ويعيشون حياة اجتماعية وعائلية سعيدة ومكثفة . وفضلاً عن ذلك فقد هجرنا أبي ونحن أطفال هرباً من خمول الحياة العائلية ، وذهب إلى باريس حيث ملأ دفاتره ، لأنه قبل أن يسلمني الحقيبة بسنوات كان قد بدأ يحدثني عن هذه الحقبة من حياته . وفي طفولتنا أيضاً كان يتحدث عن هذه السنوات ، من غير أن يذكر شيئاً عن هشاشته ولا رغبته في أن يصبح شاعراً ، ولا عن المخاوف الوجودية التي كانت تنتابه وهو في غرف الفنادق . كان يحكي لنا عن سارتر الذي كان يصادفه في معظم الأحيان يتمشى فوق أرصفة باريس ، وعن الكتب التي قرأها والأفلام التي شاهدها ، بحماس ساذج ، كمن يحمل أخبار هامة . ولا أنكر بأن مصيري ككاتب مدين لحديث أبي الدائم عن كبار الأدباء العالميين ، لا عن الباشوات والكتاب الدينيين . وعوض المغالاة في تقدير القيمة الأدبية لهذه الكتابات ، ومن الأفضل الإشارة إلى دفاتر أبي والاعتراف بما أنا مدين به للكتب التي تضمها مكتبته ، علماً بأن أبي حين كان يعيش بين ظهرانينا لم يكن يصبو ، مثلي ، إلى أن يجد نفسه ثانية وحيداً في غرفته ، كي ينعم بأحلامه الحاشدة .

ومع ذلك فإني وأنا أتأمل هذه الحقيبة المغلقة أحسست بأني عاجز عن مجرد النظر إليها ، وكان من عادة أبي أحياناً أن يسترخي فوق الأريكة ، عند مدخل مكتبته ، وأن يضع المجلة أو الكتاب الذي يقرأه ، وينساق طويلاً مع تيار أفكاره ، وحينها ترتسم على محياه ملامح جديدة مغايرة لتلك التي تعلوه وهو بين أفراد عائلته ، في خضم المداعبات والمشاجرات والمضايقات ، وتنقلب نظرته باتجاه الداخل . وقد استخلصت منذ طفولتي ومطلع شبابي بأن أبي كان رجلاً قلقاً ، وهذا ما كان يزعجني. والآن وبعد سنوات عديدة أدرك بأن هذا القلق من بين الأسباب التي تجعل الإنسان كاتباً .

أما فيما يخص موقعي في الكون ، فقد كنت أشعر بأني أعيش على انفراد ، بعيداً عن كل مركز ، سواء في الحياة أو في الأدب . ففي مركز العالم ثمة حياة أغنى وأشد إثارة من تلك التي نحياها . وكنت أنا محروماً منها ، على غرار كل مواطني . واليوم أعتقد باني كنت أتقاسم هذا الشعور مع مجموع الناس تقريباً . وعلى نفس النهج كان ثمة أدب عالمي يوجد مركزه بعيداً عني ، لكني لم أكن أفكر في الأدب العالمي بل في الأدب الغربي . وكنا – نحن الأتراك – محرومين منه أيضاً ، كما تشهد على ذلك مكتبة أبي . فقد كانت هناك كتب اسطنبول وآدابها وهي عالمنا الضيق الذي كنت أفضل تفاصيله دوماً وإلى يومنا هذا ، وكانت هناك كتب العالم الغربي المختلفة تماماً ، والتي كانت تشعرنا بالغم لا بالأمل .

كانت الكتابة والقراءة ، إلى حد ما ، وسيلة للخروج من عالم محدد ومواساة النفس بالاختلاف والغرابة وإبداعات الآخر النابغة . وكنت أشعر بأن أبي هو الآخر يقرأ أحياناً لكي يفلت من عالمه ويفر باتجاه الغرب ، مثلما فعلت أنا نفسي في وقت لاحق . وكان يبدو لي أيضاً في تلك الفترة أن الكتب تفيدنا في التحرر من الإحساس بالنقص الثقافي . ذلك أن فعل القراءة ، والكتابة أيضاً ، كان يقربنا من الغرب ويتيح لنا إمكانية مشاطرته شيئاً ما . ولكي يملأ أبي كل الدفاتر الموجودة في هذه الحقيبة كان عليه أن يرحل وينزوي في غرفة ما بأحد الفنادق الباريسية ، ليعود إلى تركيا محملاً بما كتب .

هذا ما دفعني في نهاية الأمر إلى فتح حقيبة أبي ، فلربما كان في حياته سر ما أو تعاسة لم يقو على تحملها فكتبها . وما أن فتحت الحقيبة حتى تذكرت رائحة كيس سفرة ، فأدركت أني أعرف الكثير من دفاتره التي كان قد أطلعني عليها قبل ذلك بسنوات ، من دون أن أعيرها أدنى اهتمام ، ومعظمها ، مما تصفحته واحداً تلو الآخر ، ويعود إلى تلك السنوات التي كان أبي وهو في عز شبابه ، قد غادرنا خلالها إلى باريس . غير أن ما كنت أتمناه ، كما هو الحال بالنسبة للكتاب الذين أكن لهم كل الود وأقرأ كتبهم ، هو أن أعرف ما الذي كان يجول بخاطر أبي وما الذي كتبه حين كان في مثل سني . وسرعان ما أدركت بأنه كان من الصعب أن أعيش نفس التجربة . كما إني انزعجت من صوت الكاتب الذي سمعته ينبعث من كل موضع في كتبه ، وقلت في قرارة نفسي إن هذا الصوت ليس هو صوت أبي ، فهو لا يشبهه ، أو بالأحرى إن هذا الصوت ليس هو صوت الشخص الذي عرفته أباً لي . كان ثمة توجس أخطر من مجرد الانزعاج من اكتشاف أن أبي ،

وهو يكتب ، لم يعد هو أبي : وهكذا أنتصر خوفي من أفشل في التشبه به على خوفي من إلا تعجبني كتاباته ، وأن أتبين أيضاً بأنه كان متأثراً إلى حد بعيد بكتاب آخرين . وتحول الخوف إلى أزمة تطابق أجبرتني على التساؤل ، مثلما كنت أفعل في شبابي ، حول وجودي برمته ، وحول حياتي ورغبتي في الكتابة وما كتبته أنا نفسي .

وفضلاً عن ذلك فقد كنت على الدوام ممتناً له ، لأنه لم يكن أباً عادياً يصدر الأوامر والنواهي ويهين ويعاقب ، ولكن كان يعاملني باحترام ويترك لي مطلق الحرية . أحياناً كنت أظن أن خيالي قادراً على الانطلاق بحرية مثل خيال طفل ، لأني لم أكن أعرف معنى الخوف من الخسران ، خلافاً للعديد من أصدقاء طفولتي وشبابي ، وأحياناً كنت أفكر جاداً بأني قادر على أن أصبح كاتباً ، لأن أبي أراد هو الآخر أن يكون كاتباً في شبابه ، وكان عليَّ أن أقرأه بكل تسامح وافهم ما كتبه في غرف الفنادق .

بهذه الأفكار التفاؤلية فتحت الحقيبة التي ظلت لأيام طوال في نفس الموضع الذي تركها فيه أبي وقرأت بكل ما تعبأ لدي من عزم بعض الدفاتر والصفحات . فماذا كتب إذن ؟

أتذكر بعض اللمحات عن الفنادق الباريسية وبعض الأشعار والمفارقات والاستدلالات .. وأشعر الآن كمن يتذكر بصعوبة ، بعد تعرضه لحادث سير ، ما حدث له فينفر من كل ذكرى . ففي طفولتي حين كانت أمي وأبي على وشك التشاجر ، أي خلال سكوتهما المطبق ، كان أبي يهب إلى المذياع ويفتحه رغبة منه في تلطيف الجو ، وكانت الموسيقى تنسينا في كل شيء ، على الفور .

لا يخفى عنكم أنه عادة ما يسأل الكتاب : ((لماذا تكتبون ؟)) .

أنا أكتب لأن لي رغبة في ذلك . أكتب لأني لا أستطيع القيام بعمل عادي مثل الآخرين . أكتب لكي تؤلف كتب شبيهة بكتبي فأقرأها . أكتب لأني مستاء منكم جميعكم ومستاء من العالم كله . أكتب لأنه يحلو لي أن أنزوي في غرفة ما طوال النهار . أكتب لأني لا أقدر على تحمل الواقع إلا بتغييره . أكتب كي يعرف العالم أجمع أي نوع من الحياة عشناه ونعيشه الآن ، أنا والآخرون ونحن جميعاً في اسطنبول التركية . أكتب لأني أعشق رائحة الورق والمداد . أكتب لأني أومن بالأدب وبفن الرواية قبل كل شيء . أكتب لأن الكتابة عادة وشغف . أكتب مخافة أن يلفني النسيان. أكتب لأني أستلذ الشهرة والنفع اللذين تجلبهما لي الكتابة . أكتب كي أكون وحدي أكتب آملاً أن أفهم لماذا أنا مستاء منكم ومن العالم إلى هذا الحد . أكتب لأنه يطيب لي أن يقرأني الناس . أكتب وأنا أقول في سري : لا بد لي من أن أنهي هذه الرواية وهذه الصفحة التي بدأتها . أكتب وأنا أردد : هذا ما ينتظره الناس مني . أكتب لأني أومن مثل كل طفل بخلود المكتبات والموضع الذي ستحتله كتبي فيها . أكتب لأن الحياة والعالم وكل ما في الوجود جميل ومدهش على نحو لا يصدق . أكتب لأنه من الممتع التعبير بالكلمات عن بهاء الحياة وغناها . أكتب لا لكي أحكي قصصاً بل لكي أصوغها . أكتب لكي أتخلص من الشعور بالعجز عن الوصول الذي أصبو إليه مثلما يحدث في الأحلام . أكتب لأني لا أستطيع أن أكون سعيداً مهما فعلت. أكتب لكي أكون سعيداً .

بعد أن وضع أبي الحقيبة في مكتبي بأسبوع ، عاد لزيارتي من جديد وهو يحمل كعادته علبة شوكولا (لقد نسي بأني بلغت من العمر ٤٨ سنة) وتحدثنا كالعادة في أمور الحياة والسياسة واللغط العائلي وضحكنا . وفي لحظة ما وجه أبي بصره صوب الموضع الذي ترك فيه الحقيبة ، فأدرك بأني غيرت موضعها ، وتلاقت أعيننا ، وساد صمت مربك . لم أخبره بأني فتحت الحقيبة وحاولت قراءة ما فيها . تحاشيت نظرة ، لكنه فهم كل شيء . وأدركت أنه أدرك ، وأدرك هو أيضاً أني أدركت ما أدرك . مثل هذا التفاهم لم يكن يدوم أكثر من اللازم ، لأن أبي كان شخصاً واثقاً من نفسه ، مرتاح البال ومزهوا بنفسه . ضحك كعادته وكرر مرة أخرى ، وقت انصرافه ، وبلهجة أبوية ، كلمات التشجيع اللطيفة التي كان يرددها على مسمعي . وكعادتي حدقت في خروجه غابطاً إياه على سعادته وراحة باله . لكني أذكر أني في ذلك اليوم أحسست في داخلي بفرحة محيرة .

وقبل ذلك بثلاثة وعشرين عاماً كنت قد قررت أن أتخلى عن كل شيء وأصبح روائياً ، فانزويت في إحدى الغرف . وبعد أربع سنوات أنهيت روايتي الأولى ((السيد جودة وأبناؤه)) وسلمت بيدين مرتجفتين مخطوطاً مقروناً مع الرواية إلى أبي كي يقرأها ويبدي رأيه فيها ، لأن الحصول على موافقته كان أمراً هاماً بالنسبة لي ، لا لأني كنت أعتمد على ذوقه وذكائه فحسب ، بل لأن أبي خلافاً لأمي لم يعارض رغبتي في أن أكون كاتباً . ولدى عودته بعد أسبوعين سارعت إلى فتح الباب فلم ينبس بأية كلمة ، لكنه ضمني إليه وقبلني بطريقة فهمت منها أن كتابي قد راقه كثيراً . وضللنا لبعض الوقت صامتين مضطربين مثلما يحدث في لحظات التمادي العاطفي . ولما استعدنا راحتنا في وقت لاحق بدأنا في التحادث وعبر لي بكل اهتياج وكلمات مبالغ فيها عن ثقته فيَّ وفي كتابي الأول .

وقال لي أني سأنال ذات يوم هذه الجائزة التي أتسلمها اليوم بمنتهى السرور . لقد قال لي ذلك من دون اقتناع حقيقي ، لكي يحدد لي هدفاً معيناً ، على غرار ما يقوله الأب التركي لابنه من باب التشجيع : ((ستصبح باشا)) ، وظل يردد هذه الكلمات لعدة سنوات ، وكلما رآني ، كي يشجعني ، قبل أن توافيه المنية في شهر دجنبر من عام ٢٠٠٢م .

- نص الكلمة التي ألقاها الكاتب التركي أورهان مابوق في حفل تسلم جائزة نوبل للآداب بتاريخ ٧دجنبر٢٠٠٦م .

---

* نزوى (عُمان) ، العدد ٥٦ ، (أكتوبر ٢٠٠٨م) ، ص٢٣١-٢٣٣ .

مرفأ الذاكرة إدوار الخراط

عن التجربة والقناع الذي سقط*

سوف تجد فترة الطفولة عندي شديدة الحيوية والبقاء ، هي ليست عندي ماضياً قد اندثر ، بل فترة انتفى عنها الزمن ، لذلك سوف تجد أنها بؤرة نابضة ومتوهجة ، تلقى بجذوة مستمرة في عملي القصصي والروائي ، من حيث الواقع إذا شئت ، مهما كان لهذه الكلمة من دلالة ، فهي طفولة اسكندرانية صعيدية في وقت واحد ، فقد جاء أبي من المدينة العريقة أخميم ، وما زالت أحلم ولعلي أبدأ قريباً بكتابة رواية بعنوان ((صخور السماء)) تتناول أساساً هذا الموقع ، بما يستقطبه من تيارات وشخصيات ، ومشكلات وأسئلة وأجواء .

عرفت مفازع ومباهج عميقة الوقع في تلك السنوات المكونة الأولى من الطفولة، وعرفت الحب والإيمان وصداقات لا تنسى مع ((زكي)) الذي كنا نقوم بطقوس مسرحية بدائية على نحو ما رأينا في الأراجوز أو السيرك ، ومع ((وطواط)) ابن خالتي الذي سقط تحت عجلات الترام أمام عيني ، وأنا أطل من ((بلكونة)) بيتنا دون أن أعرف من كان ، ومات ، ومع أخواتي البنات اللاتي كن يسمعن مني – وأنا في العاشرة أو الحادية عشرة – قصائد الشعر العربي الجاهلي أو العباسي ، ألقيها بصوت يهتز انفعالات فيترقرق الدمع في أعينهن ، كنت الطفل الصبي الأول البكر – الذي عاش – في العائلة فكنت من ثم موضوع حب خالاتي وأخوالي وجدي في بيت كبير يعج بالحياة والخصوبة ، وموضوع التحوط والحرص والحدب المفرط في آن ، فلم أعرف اللعب في الشوارع ولا الانخراط في ((عصابات)) وجماعات الأطفال ولم أتعلم قط لعبة من لعب الشوارع ، إلا لعبة ((البلى)) المعروفة ، ألعبها على سطح بيتنا ، وحدي أو مع أخواتي ، وفي فناء المدارس الأولية أو الابتدائية خلسة .

حكايات ستي هيلانة وخالتي نورة وماتيلده ، على سطح بيتنا في غيط العنب ، في الليالي المقمرة ، وقصص أبي أمام كنكة القهوة على ((السِّبرتاية)) – موقد بالكحول – في فسحة بيتنا ، كونت عندي الوعي الأول للحكاية ، عرفت كتباً قليلة – بمجرد أن تعلمت القراءة – كان مقفلاً عليها في خزانة صغيرة ، فتحتها بعد لأي ، وقرأت ((كليلة ودمنة)) ومنتخبات من الأدب العربي القديم ، وكتاب ((الأدب الديني عند قدماء المصريين)) ، ولعلني عندئذ كنت في السابعة أو الثامنة ، كأنني قرأتها بالأمس .

وفي الثانية عشرة – هل كنت طفلاً عندئذ ، بعد أن قرأت ((ألف ليلة وليلة)) وتيقظت حواسي كلها وشطحت بي خيالات ما أروعها – كنت قد بدأت أقرأ منهجياً ، صفحة بعد صفحة ، ((مختار الصحاح)) والتوراة والقرآن الكريم معاً ، هل تسمي تلك طفولة ؟ كانت يقظتي مبكرة وحارة ومحتشدة ومضطربة المياه .

هي رحلة طويلة متنوعة المراحل والملامح وسأكتفي منها بإشارات خاطفة فقد انتقلت إلى العباسية الثانوية ، لكي أحصل منها على التوجيهية في ١٩٤٢م ، بعد أن كنت قد ألقيت بنفسي كلية في خضم القراءة التي لم يكد يتوقف نهمي إليها ، وبعد أن خضت أيضاً غمارات الكتابة منذ أن كنت في التاسعة أو العاشرة تقريباً من العمر ، كتبت أشياء طفولية وشيئاً يشبه الشعر في تلك السن المبكرة ، ثم تعلمت كتابة الشعر الموزون المقفى ثم القصائد النثرية والتهويمات الرومانسية ، وخطرات المراهق المتحير بين الشعر والفلسفة ، ثم ألقيت بكل ما كتبت في حركة كأنها رمزية ، في موقدة نار صغيرة ، على شباك بيتنا عندما كنت وحدي لعلني كنت عندئذ في الخامسة عشر . وكأنني بعد ذلك وصلت إلى نضج مفاجئ . ففي تلك الفترة أو بعدها بقليل كنت جزءاً من مجموعتي القصصية الأولى (حيطان عالية) . استمرت رحلة الكتابة والقراءة وكأنما لم تبدأ قط بمعنى أنني أحس كل يوم أنني أفعل شيئاً في هذا السياق كله وكأنما أريد أن أبدأ من جديد .

أما عن المرحلة الجامعية فلعلها كانت مرحلة مفصلية وحاسمة .

ففي أول يوم فيها ((وقعت)) في حب زميلة لي ، حباً عذرياً أفلاطونياً صامتاً ، ثم برئت من هذا الحب لكي أرمي بنفسي في غمار العمل السياسي الثوري . حصلت على إجازة الحقوق من جامعة فاروق الأول سنة ١٩٤٦ ، ولم أعمل بالمحاماة يوماً واحداً . عندما أنشئت جامعة فاروق الأول سنة ١٩٤٢ في الإسكندرية ، اختارت موقعها على الربوة نفسها التي كانت تحتلها مدرسة العباسية الثانوية ، فكأنني قضيت على هذه الربوة الجميلة في قلب محرم بيه تسع سنوات متصلة ، وقد التحقت بالحقوق فقط لكي أرضي أبي الذي كان يتمنى أن يراني وزيراً على نمط مكرم عبيد باشا ، ولكني في واقع الأمر كنت أقضي وقتي كله مع أصدقائي في كلية الآداب على بعد خطوات في هذه الربوة الجميلة حيث سمعت محاضرات يوسف كرم في الفلسفة ، وسليمان حزين في الجغرافيا ، وكانيف في الأدب الفرنسي ، وليدل وانرايت في الأدب الإنجليزي ، ومصطفى العبادي الكبير في التاريخ ، وقرأت مقررات الفلسفة والإنجليزية والفرنسية والجغرافيا والتاريخ من أصدقائي .

عشت في بيئة عائلية خاصة وعاصرت تحولات فكرية وحضارية مهمة وكان لذلك تأثير في مواقفي الفكرية وفي اختياراتي وتوجهاتي الحياتية ، كان لذلك كله تأثير قوي في تكويني – تكوين جيل كامل من معاصري – ولعل ذلك وحده يبرر نغمة البوح الشخصي هنا ، فليس الأمر متعلقاً بشخصي بل لعله على الأرجح يتناول حقبة تاريخية دالة ومؤثرة .

فمن ناحية المواقف الفكرية والحياتية ، ومن ناحية الاختيارات السياسية ، فلأقل إن بيئة عائلتي كانت تنتمي إلى طبقة أتى منها كثير ممن لعبوا أدواراً مهمة في تطور مجتمعاتنا وهي الطبقة التي عاصرت حقبة الثلاثينيات ، هي بيئة الفئات الوسطى التي اقتربت في الكثير من الأحيان من الطبقة الكادحة وخاصة عقب الأزمة الاقتصادية التي عصفت بالعالم كله في الثلاثينيات .

لم أتردد ، مدفوعاً بإيمان محرق بالعدالة ، والحيرة ، واستقلال الوطن ، أن ألقي بنفسي في غمار الحركة الوطنية المضطربة والمتأججة في الأربعينيات والخمسينات ، ودخلت معتقلات الملك فاروق ، وخرجت منها ، واشتغلت بالدروس الخصوصية ، وفي مخازن البحرية الإنجليزية ، وفي البنك الأهلي وفي شركة التأمين الأهلية في الإسكندرية ثم جئت القاهرة في ١٩٥٥ . اشتغلت في منظمة التضامن الإفريقي الآسيوي بعد ذلك بقليل . وشاركت مشاركة بسيطة في تأسيس وإصدار مجلة ((لوتس)) للأدب الإفريقي الآسيوي باللغات الثلاث – العربية والإنجليزية والفرنسية.

كنت أقوم وحدي تقريباً بالعبء الأكبر في عملها ، في كل مراحلها ، على الأقل بالنسبة للأعداد الأولى . هي مجلة اتحاد الكتاب الإفريقيين الآسيويين ، التي انتقلت بعد ذلك إلى بيروت وتونس ثم توقفت عن الإصدار . وفي غمار عملي في التضامن الإفريقي الآسيوي التقيت الصغار والكبار وعرفت باتريس لومومبا ، وأحمد سيكوتوري ، وأنديرا غاندي ، وأجوستينو نيتو ، وأميلكار كابرال ، وعشرات من الساسة والكتاب من إفريقيا وآسيا والبلاد الاشتراكية طوفت بأنحاء العالم ، وترجمت وكتبت عشرات من الكتب والمقالات والأحاديث والبرامج الخاصة في البرنامج الثاني في الإذاعة بمصر ، وشاركت في إصدار مجلة ((جاليري ٦٨)) التي كانت رمزاً للحركة الطليعية والمنبر المصري الحديث .

أهم ما يمكن أن يتذكر المرء الآن ، هو تلك الفترة الذهبية التي هبت فيها رياح التغيير العارمة على أفريقيا حاملة معها بهجة الاستقلال ، ونشوة ظهور الأمم الفتية الجديدة حيث كان الأفق يبدو كأنه لا تحده الحدود ، حيث الآمال عريضة ، وقد طردت فلول الاستعمار الأخيرة .

في هذه الفترة ، فترة الستينات ، قامت منظمة تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية فيما أتصور بدور له أثره الحقيقي في توثيق الصلات بين شعوب إفريقيا وآسيا سواء من الناحية السياسية البحتة أو من الناحية الثقافية والأدبية عن طريق اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا الذي عملت به أيضاً سكرتيراً عاماً مساعداً .

أذكر ، كما لعلني قلت ، لقاءاتي قادة حركات التحرر الوطني في تلك الفترة ، وأذكر نفح الأمل الوليد في تلك الأيام قبل أن يسترجع الاستعمار سطوته من الباب الخلفي ، عن طريق ثقل أعباء الديون الفادحة التي تكاد تقصم ظهور هذه الأمم الفتية التي كانت تتطلع عندئذ ، في الستينات ، إلى المستقبل بنظرة ثقة راسخة سرعان ما ثبت أنها لم تكن حقيقية ، وأن الأمر يتطلب كفاحاً أشق وأطول وأكثر نضجاً وأعمق رؤية للحصول على الاستقلال الحق ، وعلى حرية الإرادة الحقة .

كنت في السادسة عشرة – في أول دراستي للحقوق – عندما قرأت الأدب الإنجليزي الكلاسيكي والمعاصر ، ومن مكتبة الدكتور زكي أبو شادي قرأت ((عشيق الليدي تشاترلي)) التي لم يكن مسموحاً بها في إنجلترا ، في طبعة ألمانية – بالإنجليزية طبعاً – ولم أكن أفلت كتاب لـ د.هـ. لورنس بعدها ، كنت أقرأ الرومانسيين الإنجليز شيلي وبايرون وكيتس وأنا أكتب أشعاراً تهيم في أودية حيرة الروح ونزوات الجسد ، ثم عرفت فرويد وماركس بعد أن كنت قد ألممت بتاريخ الفلسفة في الوقت الذي كنت أقرأ فيه كتباً مثل ((الكامل)) للمبرد أو ((العقد الفريد)) أو ((صبح الأعشى)) ونحوها من كتب التراث الأبدي .

كيف يمكن للمرء أن يتعرف في هذا الخضم من القراءات على هؤلاء الذين شكلوا في عناصر روحي ؟ لم تكن تلك قراءة بل كانت حياة أكمل وأملأ و أعتى وأرق ما تكون الحياة في وقت واحد .

في معتقلات الملك فاروق علمت نفسي الفرنسية أو جودتها ، ومن ثم عرفت السريالية والوجودية ومغامرات الرواية الحداثية في الخمسينيات المبكرة ، وليس للرغبة في المعرفة نضوب ، ولا أظنني قد جمدت عند شيء أو عند أحد ، ما زلت – في غسق هذا العمر – كأنني الطفل الذي يضرب بقدميه على شاطئ بحر ملاطم أو ساذج لا نهاية له ، ولا بر هناك أرسو عليه .

ما من كاتب واحد ، أو مفكر واحد ، كان باستطاعته أن يغير حياتي ، علمني سلامة موسى ، من بين أشياء كثيرة ، قيم العقلانية والشك المنهجي التي غيرت نسيج حياتي الفكرية والروحية .

أذكر الفرحة والدهشة وروعة الاكتشاف التي عرفتها عندما قرأت كتب سلامة موسى وأنا صبي في الرابعة عشرة من العمر : مصر أصل الحضارة ، نظرية التطور وأصل الإنسان ، الاشتراكية ، ومقالاته في ((المجلة الجديدة)) و ((الهلال)) التي كنت أشترى أعدادها القديمة من بائع يفرش بضاعته على الأرض في شارع صلاح الدين تحت مبنى شركة النور ليبون في الإسكندرية .

روعة اكتشاف قوة العقل وسطوة اللاوعي معاً ، وتأكيد كرامة الشك في مقابل ذلة الإذعان أمام العقائدية الجامدة المتحجرة ، كان ذلك ما تفتحت روحي عليه بفعل كتاباته ، وما دفعني بعد ذلك إلى ارتياد أصقاع الفكر ووضع الأسئلة دون وجل أياً كان موضوع الفكر أو السؤال .

أما قصة زواجي فهي قصة حب من النظرة الأولى على إثر خروجي من المعتقل ، حب استمر من ٥٢ إلى ١٩٥٧ ، ٥ سنوات ، يعني النظرة الأولى التي امتدت خمس سنوات ، تزوجت في ١٩٥٨ ، الزواج ؟ لعلني كنت سعيد الحظ فيه جداً من كل الأوجه ، لكن الحظ والسعادة والحب كلها تبنى ولا تعطى مجاناً ، كلها تحتاج إلى فكر وعمل وتدبر بجانب الهبة والاندفاع العاطفي ، لي ابنان أسعد أيضاً باستقلالهما وإراداتهما الحرة في بناء حياتهما ، ولي أربعة أحفاد هم الزهور المورقة في حقل هذا العمر الطويل .

معنى ذلك أنني – بالفعل – تعاملت مع الواقع الذي عشته . والآن إذ أتأمل تلك الفترة التي تبدو سحيقة البعد وقريبة ماثلة جداً مع ذلك فإنني أرجو أن أكون قد صورت هذا الواقع في كتاباتي .

أظن أنني تناولت هذا ((الواقع)) على نحو خاص منذ فترة مبكرة جداً وربما كنت غير مسبوق إلى هذا التناول ، وهو التعامل مع الواقع لا في الظاهر فقط ، لا من حيث رصد الظواهر الخارجية وما يمكن أن أسميه السطح أو القشرة أو ما يبدو للعين المجردة ، من الخارج ، وإنما هو التعامل مع الواقع باعتباره لا ينفصل عن الحياة الداخلية والروحية للإنسان ، وسقوط الحدود بين الشعر والسرد ، وهو ما يبدو واضحاً جلياً في أول كتاباتي التي نشرت وهي في مجموعة ((حيطان عالية)) وقد نشرت في آخر الخمسينيات ، ولكنها كانت قد كتبت منذ الأربعينيات المبكرة . وحتى في هذا الكتاب نجد أن المسعى الفني هو كسر الحاجز المتصور الموهوم بين الصحو والحلم ، بين الخارج والداخل بين النفس والمجتمع ، بين ما اصطلحنا على تسميته بواقع الحياة اليومية الجارية ، حياة السوق والتعامل مع الأشياء ، وعالم الفكر والحلم والهواجس الداخلية ،

بحيث يتكون من هذا كله واقع فني آخر مواز لواقع موضوعي ، أي أن هنا ((واقعاً)) فنياً ، ((يقع)) فعلاً وحقاً ويحتوي على كل العناصر التي ذكرت على خلاف ما كان ((سائداً)) في تلك الفترة بالتحديد من تصوير الواقع باعتباره مشكله اجتماعية أساساً أو اجتماعية فقط وما كان يغلب على الكتابات القصصية خاصة من تناول لظواهر الحياة ومشاكلها الاجتماعية فقط .

أتصور أن كتاباتي الأولى كانت ربما من أوائل ما اخترق وكسر هذه الحواجز الموهومة وجرؤ على تناول الواقع بجوانبه المتعددة المعقدة المختلفة والمتنوعة .

لقد قيل لي أن من يطلع على أعمالي الروائية يلاحظ تحولاً من الخمسينيات إلى العقود الأخيرة ،من حيث الاعتقاد في قدرة العمل الفني على تغيير الواقع ، فبعد الالتزام بالاشتراكية والحلم بالمثل العليا ، يقول البعض إن الروائي في داخلي يكتف بكشف خبايا المجتمع من خلال ((رؤية ذاتية)) .

وبغض النظر – مؤقتاً – عن أنه ليس في الفن الحقيقي رؤية ((ذاتية)) بالمعنى الضيق المغلق المرضي ، وأن كل رؤية فنية إنما تقع في نطاق التشارك الإنساني فيما أسميه ((منطقة ما بين الذاتيات)) فلا شك أن فترة الخمسينيات ، فترة المد القومي والأحلام العريضة والآمال البراقة والساطعة والحلم بالأمجاد ، كما نعرف بل كما عانينا في صميم وجداننا جميعاً ، نحن أبناء هذا الجيل ، قد انتهت بالصدمة المزلزلة التي تمت بهزيمة ١٩٦٧ وكشفت عن زيف كثير من الدعاوي أو على الأقل عن هشاشة كثير من الشعارات مما دعا كثيراً من الكتابات تتخذه من ((التبشير)) واليقين والتغني بالأمجاد إلى موقف وصف بالجنوح إلى خبايا وإلى التأمل الذاتي .

هذا صحيح كله في مجمله وإن كنت أريد أن أشير إلى أن كتاباتنا ، على الأقل نحن الذين يحق لنا أن نسمي أنفسنا بالرواد الأوائل – وليس في معنى ((الريادة)) هنا تقييم ، بل هو مجرد توصيف – كانت تحمل إرهاصات ونذراً بالهزيمة ، كانت من غير أن تضع يدها تماماً وبشكل واضح على لب القضية مباشرة ، تحس وتتلمس أن الشعارات المجلجلة هي أيضاً شعارات جوفاء وأن هناك شيئاً لا يجري على سننه على الإطلاق وأن منهج الوصاية الأبوية الطاغية ، الناصرية على الأخص ، بما حملته من عدوان على قيم المشاركة الشعبية الايجابية ، وهي القيم المنقذة الوحيدة ، هو منهج يسير بنا نحو الهاوية ومن ثم انعكس ذلك ، أو انعكست نذره وإيماءاته في كتاباتنا حتى وقوع الهزيمة مباشرة أو قبلها بفترة ، مما كان يشكل نوعاً من التنبؤ أو الإرهاصات أو حتى النذير أو التحذير . ولكن ذلك كله لا يقلل من عظمة الإنجازات التي تحققت في العهد الناصري .

أكد هذا تماماً بعد وقوع الكارثة القومية والإنسانية التي لحقت بنا وتحولت الكتابات الصحيحة والصالحة إلى ما سميته بكتابة المسألة لا كتابة اليقين ، وهي علامة صحية . هذا كله يشير إلى انحسار دعوى امتلاك ((الحقيقة)) امتلاكاً مطلقاً – سواء كان ذلك من جانب الراديكاليين اليساريين أو من جانب السلفيين الظلاميين – ويشير إلى دور البحث الصادق عن هذه ((الحقيقة)) أو عن وجه من وجوه حقيقة لا بد أن تكون متعددة وليست واحدية .

أما عن رحلتي مع القراءة والكتابة ، تلك الرحلة الطويلة ، التي وصفتها في موضع سابق ، بأنها رحلة كأنها لم تبدأ قط بمعنى أنك تحس كل يوم وكأنك لم تفعل شيئاً في هذا السياق كله ، وكأنما تريد أن تبدأ من جديد ، هل هو طموح الفنان الذي لا ينتهي ؟

فيما يتعلق بالقراءة فإنني أتصور أن المسألة ليست طموحاً ما بقدر ما هي تتعلق بما يمكن أن أسميه خصيصة في تكويني كفنان . سمة لا تنفصل عن فعل الحياة نفسه ، بمعنى أن هذا التطلع المستمر للمعرفة ، شغف – أو ولع أو نهم – مستعر نحو المعرفة ، لا يشكل طموحاً بقدر ما يشكل في تصوري نوعاً من القسر ، أو الحافز الذي لا يقاوم ، نحو الاغتراف من هذا المحيط الذي لا ساحل له ممكناً الوصول إليه ، ولهذا قلت كأنها رحلة لم تبدأ قط ، فيما يتعلق بالكتابة هناك نفس الطموح ، وهو أن الكتابة عندي هي فعل لاعج نحو المعرفة على نحو آخر ، وبأسلوب آخر ، فهي تمثل في كلا الحالين الطموح بالمعنى السهل المتعارف عليه ، هناك بالفعل طموح إذا فسرناه بأنه سعي مستمر نحو مزيد من المعرفة ومزيد من التواصل ومزيد من التقارب مع الناس ومع الأشياء ومع هذا الكون الذي نعيش فيه ، مزيد من محاولة البحث عن إجابات لأسئلة لا تزال قائمة أبداً ولا تزال الإجابات عنها تبدو مرواغة أبداً بعيدة المنال عصية .

هذه الرحلة التي بدأت منذ نصف قرن أو أكثر ، أحس كأنها لم تبدأ . كيف أنظر الآن ؟

سأكرر إنني أكاد أقرر أنها لم تبدأ بعد ، بكل ما حملته السنوات الطويلة إلي من زاد ، يظل هذا الجوع المسعر نحو الجمال المروع ونحو الحب المراوغ ، نحو المعرفة ونحو التواصل مستمراً ، هذا الجوع يظل كأنه في يفاعته وعرامته الأولى ، حاداً محتداً فلعل في هذا تفسيراً لما قلته بأنني أتصور هذه الرحلة كأنها لم تبدأ بعد .

بعد هذه الرحلة الطويلة يبدو المرء محملاً برصيد من القراءات والكتابات يخطو خطوته الأولى في هذه الساحة التي تظل تتسع باستمرار كلما تعمقت فيها ، وكلما تقصيت جوانبها فماذا عن قراءاتي تلك ، مم تنبع ، وإلام تتجه ؟

تختلف هذه القراءات ويختلف موضوع القراءة عبر هذه الرحلة الطويلة ، في البداية مثلاً كنت أقرأ – حرفياً – كل شيء كل ما يقع تحت يدي ، وفي فترة الصبا والمراهقة الأولى كانت قراءاتي تتنوع من المجلات ، إلى الروايات المختلفة بأنواعها المتاحة ، إلى القراءات العصية . كما قلت ، لم أكد أفلت ورقة مطبوعة إلا قرأتها وسعيت إليها ، ومن ألف ليلة وليلة إلى مسامرات الجيب ، من مجلة السكة الحديد إلى مجلة كل شيء والدنيا . أنا أضع كل الأطراف المتناقضة وما بينها على طول وعرض المنشور من الفنون ، إذا صح التعبير .

بتقدم الحياة قليلاً قليلاً يبدأ المرء في الاختيار والتدقيق ، خاصة بعد أن يكون قد قرأ أو عرف ما يمكن معرفته وما أتاحت له قراءاته من كنوز الإنجازات الفنية خاصة ، وعلى الأخص في ميادين الرواية ((الطويلة والقصة)) والشعر والفلسفة والتاريخ ، وما تستهويني ولا تزال تستهويني قراءته هي هذه الميادين الآن .

توقفت – مثلاً – عن قراءة ما يسمى ((القصص العلمي)) أو روايات الخيال العلمي والروايات البوليسية الجيدة التي كنت شغوفاً بها ، في فترة المراهقة ، وكنت ألجا إليها كنوع من الترويح والتسلية لا أكاد أجد لهما وقتاً الآن ، حيث يبدو أن شقة العمر قد ضاقت وأن رحلته قد قاربت النهاية .

ماذا أحب في الحياة ؟ وماذا أكره ؟

لا أكره إلا القليل ، فلنبدأ بعملية العزل أو النفي ، مهما بدا ذلك مما تصعب الإحاطة به . بالطبع أكره القبح بأنواعه المختلفة وخاصة القبح الخلقي ، لأن القبح الفيزيقي نفسه أو الجسماني قد يخفي جمالاً من نوع نادر . لكن القبح الروحي على الأخص هو الشيء الكريه . يمكن للمرء أن يجد معذرة ،

أو مكاناً للفهم حتى بالنسبة للقبح الأخلاقي بمعنى الوقوع في الأخطاء أو حتى الجرائم والأخطاء ويصبح ضحية لهذا القبح على الرغم منه . ما لا يكاد يغتفر ولا يكاد يفهم هو الفقر الروحي أو ما تنطوي عليه الروح من معاداة لنفسها حيث تنقلب عدواً لنفسها ، حيث يصبح الحقد والصغار والهوان هي المزالق أو الفخاخ التي تتعثر الروح في شباكها . هذه تصبح فعلاً كريهاً . لا أتصور أنني أكره شيئاً آخر . أما الحب فحدث ولا حرج . فلعل من الضروري أو المنطقي أن يكون الجمال هو أكثر ما أحب ، قد يتمثل بالمرأة كما قد يخايلنا في المشاهد الخفية والمرهفة التي لا يمكن الإمساك بها باليدين . أحب كل متع الحياة الحسية ، كما أحب متع الحياة الروحية بقدر سواء . أتصور أن في المتعة الحسية دائماً عندي على الأقل ، وعند الكثيرين ممن أعرف كتاباتهم عبر الأزمان ، هذا الجانب المصفى الذي يشارف النشوة الروحية في قمة اللذة الحسية بحيث تمتزج عندي هذه المتعة الحسية بما فيها ، هي نفسها ، من جوهر لا يكاد الحس أو الحواس أن تحيط به . معنى ذلك بوضوح أن القبح في اللذات والمتع الحسية هو أيضاً نقيض لها وأن الفجاجة والخشونة في هذه الممارسات إفقار لها وتحديد بمعنى أن تصبح محدودة وضيقة ، وأكاد أقول تافهة وغير ممتلئة .

ما هي الفلسفة العامة التي تحكم حياتي ؟

لعلني قد استشففت شيئاً في تناولي للمسائل السابقة ، لست أريد أطمع أن أسمى ما يسير حياتي فلسفة ، بالمعنى التكنيكي أو المصطلحي ، لنقل إن هناك محاور أساسية تسير هذه الحياة ، منها شوق دائم إلى الحب ، ومنها اعتزاز دائم بكرامة الإنسان وبالتالي غضب مستمر على كل ما يلحق بها مهانة أو هواناً . لعل كلمات مثل الجمال أو الحب أو الحقيقة كلمات قد تبدو في تجردها هذا لا تعني شيئاً ، ولكن ربما كان لي سعي إلى عطائها معنى مختلفاً ، أعمق كل يوم ، وأكثر حدة كل يوم ، هو السعي الذي يحكم حياتي الفنية إذ اعتبرها هي نفسها أو هي بدورها هي الحياة ((الحقيقية)) ، ولذلك فليس لي إلا أن أحيا على كتاباتي للتعرف إلى إجابة عن هذا السؤال ، وفي هذا وحده سقوط القناع الذي يحجب الصدق عن الذات وعن الآخر .

ويشغلني مشروعان بدأت في تحقيقهما في الكتابة هما على وجه التحديد ، كتابة مجموعة شعرية خامسة بعنوان ((صيحة وحيد القرن)) ، وقد بدأت بالفعل فيها ، وتشغلني أيضاً كتابة رواية طال إلحاحها علي وطال إعدادي لها وهي بعنوان ((صخور السماء)) .

هل ظفرت بكل ما كنت أريد من الكتابة ومن الحياة ؟ لا .. لا يمكن .

هذا سؤال مفقود دائماً . يبدو أنه لم يتحقق شيء على الإطلاق ، في الوقت نفسه تحقق الكثير والكثير جداً .

يبدو أنه مع تقدم العمر ينبغي أن يكون المرء قد وصل إلى الحكمة والقناعة والاستقرار ، هذه أشياء مستحيلة التحقق عندي ، كأنني ما زلت ذلك الطفل الصبي الفتى الكهل المتوقد دوماً بالأشواق إلى مراودة المستحيل .

لا يوجد أي نوع من الاكتفاء ولا الامتلاء ولا ما يشبه ذلك ، ويظل السعي إلى المعرفة وإلى الحب – بأوسع معانيه – وإلى التحقق ، مستمراً ما استمرت الحياة .

---

* كتاب العربي ٥٤ ، (١٥ أكتوبر ٢٠٠٣م) ، ص٣٨-٥٣ .

القداسة التي أحيط بها كتاب الله كان لها تأثير كبير في احترامي للكتاب *

دكتور / عبد العزيز المقالح :

- **كيف بدأت علاقتكم بالكتاب ؟**

- كان القرآن الكريم هو الكتاب الأول الذي تشرفت في طفولتي بلمسه ، وقرأته، وكان للقداسة التي أحيط بها كتاب الله العزيز تأثير كبير وعميق في احترام الكتاب . وقد ظل ذلك هو شأني مع الكتب أياً كان نوعها أو موضوعها ، حيث تحظى منى باحترام كبير . واعتقد أن كثيراً من الذين نشأوا مثلي ، في بيئة تحترم الكتاب ، قد تطورت علاقتهم به من خلال القراءة إلى التأليف ، والكتابة .

وتلك ميزة تحسب للكتاب ذاته ، تؤكد على كونه أداة تغيير وإبداع . ومن الثابت – من وجهة نظري – أن الذين يعادون الكتاب ، ولا يهتمون به ، هم أولئك الذين لم يعتادوه منذ الصغر ، ولم يقتربوا منه في الكبر إلا على شكل مقررات مدرسية ، ولذلك فما يكادون ينتهون من آخر امتحان حتى تجدهم يرمون بالكتاب إلى أقرب سلة مهملات ، أو ((يجدلونه)) على حد تعبيرهم إلى الطريق .

وبعد أن يتخرجوا من المدرسة ، أو الجامعة لا يعودون إلى الكتاب الذي يذكرهم بالمقررات الصعبة ، وبالامتحانات الأصعب ، ولهذا لا توجد علاقة ثنائية محببة بينهم وبين الكتاب ، كما هو الحال مع البعض الذين أراني واحداً منهم وفي هذا الصدد ليس السيف أصدق أنباء من الكتب كما يقول أبو تمام في قصيدته الشهيرة إلا في حالات نادرة كحالة المعتصم مع الروم !! .

- **أي الكتب تأثرتم بها ولماذا ؟**

- كثيرة هي الكتب التي قرأتها ، وقليلة هي الكتب التي تأثرت بها . وفي بداية حياتي كنت أميل إلى قراءة الكتب الرومانسية شعراً كانت أو رواية .

شدني في البداية مصطفى لطفي المنفلوطي بمقالاته البديعة في النظرات ، ثم بترجماته الرائعة في العبرات ، وفي بقية الكتب المترجمة عن الفرنسية كما في ((ماجدولين)) و ((تحت ظلال الزيزفون)) و ((الشاعر)) ، وقد أسلمني المنفلوطي إلى جبران خليل جبران ، وهما من مدرسة واحدة على اختلاف ما بينهما من مفارقات في الرؤية .

وعن طريق هذين الكاتبين وصلت إلى طه حسين والرافعي ، ولم يعجبني عباس محمود العقاد في البداية لان لغته جافة ، وليس فيها ما في لغة هؤلاء من طراوة المعنى ، وعذوبة اللفظ .

شدني لفترة الروائي المظلوم محمد عبد الحليم عبد الله في رواياته الرومانسية ، ((بعد الغروب)) ، ((شجرة اللبلاب)) ، ((شمس الخريف)) .

وعندما عثرت على نجيب محفوظ ، وكان ذلك بعد رحلتي الأولى إلى القاهرة في ١٩٥٨م لم أعد أطيق قراءة الروايات الرومانسية ، وسحرني الواقع كما ترسمه روايات الكبير نجيب محفوظ . وفي الشعر لم يختلف الأمر كثيراً ، فقد كنت شديد الإعجاب بالشعراء الرومانسيين ، إبراهيم ناجي ، ومحمود حسين إسماعيل ،

وأبو القاسم الشابي ثم هجرتهم جميعاً إلى صلاح عبد الصبور ، وأحمد حجازي ، وبدر شاكر السياب ، ونازك الملائكة ، و أودونيس وآخرين من شعراء المدرسة الجديدة . ولكن بعد أن تأثرت بهم جميعاً ، وصاروا جزءاً من تكويني الأدبي . وأستدرك هنا الإشارة إلى قراءتي المتكررة للشعر العربي القديم ، وحفظي لقصائد كثيرة من شعر شعراء من مختلف العصور ، مثل المتنبي ، والشريف الرضي ، وأبي العلاء المعري بخاصة .

- **ماذا تعني لكم القراءة ؟ وهل لها عندكم طقوس خاصة ؟ أو مواعيد خاصة ؟**

- تعني لي أولاً : المعرفة ، الضوء ، الخروج من دائرة الجهل بما حولي ، وتعني لي ثانياً : المتعة فلا شيء في الدنيا بالنسبة لي يعادل ساعة القراءة ، وما تضيفه على حياتنا من شعور بالسعادة والجمال ، ومن إحساس بأننا مع الكتاب نعيش حالة من التساؤل والغبطة ، وصحبة مع الكبار وهم يتحدثون إلينا ويشرحون آراءهم أو تصوراتهم عن الحياة والعالم بطريقة تختلف تماماً عن التلقي المباشر عن طريق الخطيب ، أو الراديو ، أو التلفزيون ، " حيث ينعدم الحوار ويختفي النقاش .

صحيح أن الكتاب جامد ، وأن مؤلفه غائب ، لكن ذلك لا يمنع من أن تقيم الحوار مع الكاتب نفسه ، وأن تسجل ردود أفعالك معه بحرية .

ولا أخفي أنني عندما أكون في المكتبة وحيداً أشعر أنني أسمع إلى أصوات بعدد الكتب الموجودة في المكتبة ، أصوات لقدماء ومعاصرين ، فلاسفة وشعراء ، وروائيين ، ونقاد . وهذا التخيل – في حد ذاته – يضيف حالة من السعادة والإحساس بالزهو ، وأنت تشعر أن سقراط ، وأفلاطون ، والإمام علي بن أي طالب ، أو الجاحظ ، أو أبا حيان التوحيدي ، وأبن عربي ، والمتنبي ، وشوقي وطه حسين ، والزبيري هم الذين يتحدثون إليك ، ويؤنسون وحدتك ، ويقدمون إليك أجمل ما فاض به وجدانهم .

أما عن الطقوس الخاصة ، فقد تحررت منها منذ زمن طويل ، وصارت القراءة أداة توصيل وفعل غذائي ، شأن الطعام اليومي ، وإذا لم أقرأ أشعر كأنني لم أتناول وجباتي الغذائية كاملة ، وأجمل أوقات القراءة في الليل ، وإذا ما كان النوم مبكراً فإنه يحرمني لذة السهر مع الكتاب .

- **كيف تنظرون إلى مستقبل الكتاب في عالم اليوم المليء بالتحولات ؟**

- ربما كنت واحداً من ملايين القراء الذين يؤمنون بأنه سيكون للكتاب شأن أكبر من شأنه في الوقت الراهن ، بالرغم من ظهور وسائل تهدد وجود الكتاب ، وفي مقدمتهم الكتاب الإلكتروني الذي هو في حقيقة الأمر امتداد للكتاب ، والاختلاف الوحيد أن طريقة كتابته اختلفت .

كان عدد من الكتاب في بداية القرن العشرين – بعد اختراع الصحافة والإذاعة يعتقدون أن لا مستقبل للكتاب ، ولكن الكتاب ازدهر وصفه ، وتضاعف ملايين المرات ، وحدث ذلك بعد ظهور التلفزيون ، وسيحدث بعد الإنترنت والكتاب الإلكتروني ، ولن يتمكن طلاب المدارس والجامعات من التعلم الحقيقي ، والحصول على المعرفة الشاملة سوى عن طريق الكتاب .

- **كيف تنظمون مكتبتكم الخاصة ، ومن يشاطركم قراءتها ؟**

- أعترف أن مكتبتي ، وتكاد تكون من أكبر المكتبات الشخصية في البلاد تعاني من فوضى واضطراب ، لم ينجح أحد من الزملاء في تنظيمها حتى الآن .

وما زلت أجد صعوبات بالغة في العثور على كتاب معين فيها وأضطر إلى استعارته من صديق ، أو من مكتبة مركز الدراسات ، أو مكتبة الجامعة ، ولا أجد وقتاً – الآن – لإعادة النظر في وضع مكتبتي ، فضلاً عن ضيق المكان الذي يضمها ، وتكدسها في أكثر من غرفة في البيت ، مع وجود غرفتين مستقلتين مزودتين بالأرفف ، وبكل ما لا ينقص أي مكتبة منظمة .

- **لا شك أن هناك مواقف خاصة مرت بكم ، ولها علاقة بالكتاب ، أو القراءة ، هلا ذكرتموها بطرافتها أو مساوئها ؟**

- المواقف الطريفة تضيع في غمار المواقف المؤلمة والمزعجة ، ومع بعض كتبي أو أعمالي الشعرية بخاصة ، ما أثارته بعض هذه الكتب ، أو الدواوين الشعرية كاد يجعلني أهجر القراءة والكتابة ، وأغبط الأميين البسطاء الذين لا يفرقون بين الألف والعصا .

وهناك موقف ربما أنطوى على شيء من الطرافة . ففي عام ١٩٥٨م سافرت لأول مرة إلى القاهرة ، وطلب مني عدد من الزملاء كتابا أدبياً نجلبه معنا وألحوا عليَّ بشأنه ، وقال احدهم لو وصل ثمنه مائة ريال (ثلاثمائة دولار يومئذ) فلا تتردد عن شرائه . وفي القاهرة لم أترك مكتبة ولا رصيفاً للعثور ، ولو على نسخة واحدة منه ، ولكن دون جدوى . وشاءت الصدف الطيبة أن نعود عن طريق جدة ،

وأن نذهب للعمرة ، وبعد عودتنا من بيت الله الحرام ، وقبل الدخول إلى الفندق الذي نزلنا به في جدة وجدنا على الباب رجلاً ينشر على الرصيف مجموعة متنوعة من الكتب على باب الفندق ، وبأثمان زهيدة جداً ، ومنها الكتاب المطلوب لي وللزملاء ، أذهلتني المفاجأة وجمعت كل ما على رصيف الفندق من نسخ الكتاب ووضعتها في حقيبة مستقلة ، وعندما رجعت إلى صنعاء أعطيت كل صديق نسخة مجانية من الكتاب المذكور .

- **من موقع علاقتكم وقربكم من الكتاب كيف تشخصون واقع القراءة في اليمن ، وما هي آفاقها المستقبلية ؟**

- أحياناً يبدو لي أن بلادنا في مقدمة الأقطار العربية اهتماما بالقراءة أو بشراء الكتاب ، وذلك من خلال تتبع نتائج المعارض التي كانت تقام في رحاب جامعة صنعاء .

وأحياناً يبدو لي أن بلادنا أو بالأحرى أهلنا في هذه البلاد يكرهون الكتاب ، ولا يرغبون في اقتنائه أو قراءته ، وذلك من خلال تتبع رواد المكتبات القليلة المنتشرة في مدينة صنعاء . رواد هذه المكتبات لا يزيدون عن أصابع اليد الواحدة ، وعدد الشباب الذين يتجولون في شارع جمال ، أو في شارع علي عبد الغني يعدون بعشرات الآلاف ، فضلاً عن هبوط مبيعات الكتاب اليمني ، وضآلة ما يكسبه المبدعون من وراء النشر ، وهذه هي مشكلة عربية يردها البعض إلى سوء الأوضاع المعيشية ، وغياب الإمكانات المادية عند الشباب القارئ .

والحقيقة التي ينبغي أن تقال : إننا شعب لا يهتم بالقراءة ، ولا يراها ضرورة كالغذاء ، والماء ، والهواء ، ويضاعف من مرارة هذه الحقيقة حالة الفقر عن أفراد الطبقتين المتوسطة والدنيا محلياً ، وأملي كبير في مئات الآلاف من الخريجين الذين يحصلون كل عام على شهادات التخرج في أن يدركوا أن الشهادات الجامعية ليست إلا بطاقة لدخول المكتبة ، وتوسيع آفاق المعرفة عن طريق القراءة .

- **ما الذي يتعين عمله من أجل أن تكون القراءة للجميع على غرار ما هو حاصل في بعض البلدان ؟**

- بذل كل ما من شأنه أن يدعم وزارة الثقافة وهيئاتها ، وإداراتها المختلفة مادياً ومعنوياً ، ومعرفياً لتتمكن من إيصال الكتاب الجيد إلى القارئ بقروش زهيدة ، وإغرائه على القراءة من خلال المحاضرات ، والندوات ، والنشرات .

ولا يمكن في هذا الصدد ، تجاهل الدور الذي يمكن لوسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة أن تقوم به في التشجيع على القراءة ، من خلال الإعلان المجاني عن الكتب التي يتوفر لها الحد الأدنى من الجودة .

وقد كان للتلفزيون في وقت سابق دور لا ينسى في الإعلان عن الكتب التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة والجامعة ، ومركز الدراسات والبحوث ، وكان لتلك الإعلانات أثر كبير في البحث عن تلك الكتب ، وهذا ما يحدث في كل عواصم العالم المتحضر ، ومن يتابع الصحافة البريطانية – على سبيل المثال – يجد أهم الصحف تتولى يومياً ، أو أسبوعياً الحديث المكثف ، وأحياناً المفصل عن الكتب التي تصدر ، وهو ما (تترفع) عنه صحافتنا ، وإلا فقل لي ما هي الصحيفة اليومية أو الأسبوعية التي تكتب تحت أي عنوان من العناوين الأربعة الآتية :

- كتب جديدة   - عصير الكتب

- ماذا تقرأ اليوم - اخترنا لك

وقد علق أحد الزملاء الساخرين على هذا الموضوع بأنه على استعداد ليكتب كل يوم تحت عناوين جديدة هي :

- أين تخزن اليوم ؟
- من تشتم اليوم ؟

وفي ظني ، بل في يقيني أن الدول الحريصة على الارتقاء بعقول أبنائها ، وتطوير معارفها تضع إستراتيجيتها الثقافية في مستوى إستراتيجيتها الدفاعية ، فالجهل أخطر أعداء الشعوب ، وضحاياه أكثر من ضحايا الحروب .

- **ما آخر الكتب والدواوين التي تشتغلون عليها حالياً ؟**

- أمامي في هذه اللحظة كتابان لا ينقصهما سوى الترتيب ، الأول ((دراسات صوفية)) ، والآخر عن الشاعر الإسلامي الكبير (محمد إقبال) ، وأمامي أيضاً عمل شعري جديد هو (كتاب المدن) ، وهو جزء من سلسلة الكتب التي بدأت بـ(كتاب صنعاء) ، ثم (كتاب القرية) ، و (كتاب الأصدقاء) ، وسأبعث به قريباً إلى دار رياض الريس للنشر .

• **ما الحلم الذي يراودكم ، وتتطلعون إلى تحقيقه على الخصوص في ما يتعلق بالكتاب والقراءة يمنياً وعربياً ؟**

- الأحلام واسعة ، والمهم هو التركيز على ما يمكن تحقيقه منها . وأحلامي للكتاب أن يصبح مجاناً ، وأن تكون هناك مكتبات في كل أحياء المدن اليمنية الكبيرة منها والصغيرة ، وأن تكون للقراءة وجبات يومية كوجبات الإفطار والغذاء والعشاء .

سواء على المستوى المحلي أم العربي ، وإذا تحقق هذا الحلم ، فإننا حينئذ نستطيع أن نراهن على شعب عربي قارئ ومنفتح ، ومثقف ، يعرف كيف يتعامل مع قضاياه أولاً ، ومع أعدائه والمتربصين بأحلامه الكبرى في الوحدة ، ثانياً ، لكي ينهض من كبوة التخلف التي أعاقت مسيرته وجعلته هدفاً لكل الطامعين .

▪ **حاوره / عبد الكريم هائل**

---

* مجلة الكتاب (صنعاء) ، العدد الأول ، (ربيع ٢٠٠٥م) ، ص ٣٥-٣٧ .

القاص اليمني أحمد محفوظ عمر *

ولدت وسط أسرة فقيرة ، وبما أنني كنت آخر العنقود لأخوة يبلغ عددهم أثنى عشر فرداً فقد أنصب اهتمام أمي بي حداً كبيراً ودفعها حبها الكبير لي لأن تطمح في أن تصنع مني أنساناً مهماً في الحياة ، مهما كلفها ذلك من جهود ومال ، بالرغم من الفقر الكريه الذي كان يعشش على أسرتنا ويرتاح بكلكلة على أنفسنا ويكاد يكتمها ، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لعائل يعمل بالنجارة ويعول أسرة كبيرة تنحشر في منزل قديم متهالك ، يتكون من غرفتين وحمام ومطبخ فقط في حي شعبي بمدينة الشيخ عثمان .. وكأي طفل ينفر في بداية حياته من الدراسة والالتزام بها – خاصة وقد نمى ذلك النفور في نفسي قسوة فقهاء الكتاتيب " المعلامة " – إلا أن أمي بذلت مجهوداً مهولاً في إصرارها على تعليمي .. وقد تمثل ذلك الإصرار في الزجر أحياناً والضرب أحايين أخر . وكانت تردد بعد ندمها من ضربها لي : أنني أفعل ذلك من أجلك ، وستعرف ذات يوم ، وكان أبي مشغولاً عليَّ بسبب كفاحه المرير لتوفير لقمة العيش لنا .. وفجأة وجدت نفسي أقرأ بشغف كل ما يقع في يدي من كتب وصحف ، ولمست ميلاً غزيراً للقراءة ولازمني يومها شعور عميق بموهبتي وفصاحتي .. والذي أكد هذا الشعور في داخلي أن والدي كان يستدعيني لأقرأ له ولجلسائه في جلسات القات عصراً وفي شهور رمضان مساءً كُتب عنترة بن شداد وألف ليلة وليلة ، وسيف بن ذي يزن ، وزيد الهلالي وغيرها .. وكانت أصوات الإعجاب من الحاضرين تتعالى ، مشيدة بي وبفصاحتي ، وخاصة أثنا ترديد الشعر بالرغم من عدم معرفتي بالنحو يومها .. ولعب هذا الإعجاب في نفسي دوراً كبيراً ، ودفع بي خطوات واسعة إلى الأمام .. وبدأت أقرأ بعض القصص والروايات في مختلف الكتب وفي سلسلة الهلال الشهرية .

وكانت تلك القص والروايات تتوزع بين البوليسية والاجتماعية والرومانسية ، وشغفت كثيراً بهذا اللون من الأدب ، ووجدت رقعة الخيال تتسع في ذهني ، والرؤية للواقع تصفو وحركة الشخوص في مختلف المراحل تمتد وتتشعب ، وتتخذ لنفسها أنماطاً مختلفة ومعقدة .. كما هي في الحياة ولهذا وجدت أن فن القصة هو أنسب الفنون لاحتواء ذلك الخيال المتأجج الذي بدأ يتوهج في بداياتي الأدبية .. وكتبت قصة بعنوان ((كنت مربية أطفال)) ودخلت بها مسابقة أقامتها إحدى الصحف المحلية في صفحة الطلاب وفزت بالجائزة الأولى .

وبسبب هذا الفوز المبكر في سيرتي الأدبية اندفعت أكتب قصصاً قصيرة وأنشرها في تلك الصحيفة ، وتنبأت في إحداها بموت الإمام الفاسد (أحمد) وذلك بعنوان (مصرع طاغية) على ما أذكر . ثم أخذت أقرا بنهم لكتاب كثيرين أمثال محمد عبد الحليم عبد الله ، وأمين يوسف غراب ، ونجيب محفوظ .

وغيرهم من الكتاب العرب .. وبعد أن أنهيت مرحلتي الثانوية من الدراسة ، قرأت الأدب باللغة الإنكليزية ، ووجدت في المكتبات الكثير من القصص والروايات لكبار الكتاب الغربيين .. سومرست موم ، وأرنست همنجواي .. وقرأت لموباسان ، وكافكا بعض أعمالهم المترجمة إلى الإنكليزية وبعض الأعمال لمختلف الكتاب من الشرق والغرب ، وقرأت بانبهار لكتاب سوفييت قدامى ومحدثين ، ولكن المتعة الكبيرة هي أن تقرأ عملاً لكاتب ما بلغته الأصلية .. لأنك تتطلع عن قرب على أحاسيسه في التعبير وعمق انفعاله بالحدث ، وروعة تصويره للأبطال الذي خلقهم ، وجعلهم يتحركون على الورق أحياء ينبضون ، بالحيوية والنشاط ، وينكفئون وينشطون ، يولدون ويموتون .. ثم قرأت لعمالقة الأدب العالمي باللغة العربية بعض أعمالهم الخالدة ،

وقرأت عن حيواتهم والمراحل التي عاشوها وهم يسطرون أهم إنجازاتهم الفنية وعايشت (موبسان) وهو يشق فمه بشفرة الحلاقة وينظر بتعجب إلى الدم وهو ينسال على صدره ويموت (وهمنجواي) وهو يطلق النار على رأسه . وحين بدأ وعيي بالحياة ينضج ، أجبرني أبطال قصصي الذين يخوضون ظروفاً صعبة في ظل الاحتلال البريطاني أن أقرأ كثيراً في الاشتراكية .. ووجدت نفسي أنحاز في كتاباتي القصصية ، ومقالاتي السياسية إلى جانب المضطهدين والفقراء والمتطلعين إلى الحرية وإلى الحياة الأفضل ..

* مجلة الكتاب (صنعاء) ، العدد ٣-٤ ، (٢٠٠٦م) ، ص ٨٠ -٨١ .

ملحق (٢)

- مكتبة الأسرة في مصر .
- كيف نستطيع أن نصنع مجتمعاً قارئاً .

مكتبة الأسرة في مصر

مكتبة الأسرة في جمهورية مصر العربية تأسست عام ١٩٩٤م ، وطبعت المكتبة ٧٠ مليون نسخة من الكتب المتنوعة في الآداب والفنون وللأطفال ، وفي العلوم التطبيقية والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، وقامت بترجمات متنوعة في الآداب والعلوم والفكر الإنساني الخالد . استفاد من إصدارات هذه المكتبة ٢١ مليون قارئ ، حيث تباع هذه الإصدارات بأثمان زهيدة لتيسير وصول المعرفة للقارئ .

وفي استبيان لعينة مختارة حول ((مكتبة الأسرة)) حيث شمل الاستبيان ألف فرد يشير الدكتور جهاد عودة * :-

- أقترح (٢٧٤) نشر موضوعات دينية لبعض الكتاب ، وفي مقدمتهم محمد الغزالي عمرو خالد ، متولي الشعراوي ، زغلول النجار ... ، بينما أقترح (٢٤٢) نشر موضوعات متعلقة بعلوم التغذية ، والصحة العامة ، وتنمية الشخصية . وأقترح (٢١٥) نشر موضوعات متعلقة بالطبخ وفنون التفصيل ، وأقترح (١٥٩) نشر موضوعات مختلفة لكتاب بعينهم ، في مقدمتهم : أنيس منصور ، محمد حسنين هيكل ، فاروق جويدة ، عبد الوهاب مطاوع ...

- أقترح (٦٤٥) تحسين الشكل الطباعي ، وأبدا (٣٧) منهم قبلوهم بارتفاع السعر في مقابل الارتقاء بالجودة الطباعية .
- أقترح (٢١٧) تكثيف التوزيع في المحافظات ومدنها وقراها . وأقترح (١٧٣) زيادة الأعداد المطبوعة . بينما أقترح (١٦) توزيع مطبوعات المشروع على مدار العام كله .
- أقترح (١٩٠) تكثيف النشر في الموضوعات العلمية والتخصصية وفي مقدمتها : علوم الحاسب ، العلوم الهندسية ، العلوم الزراعية ، التربية ، الفلسفة ، والعلوم العسكرية . وأقترح (١٦٤) نشر واستكمال الأعمال الأدبية لكبار المبدعين العرب والأجانب وفي مقدمتهم : نجيب محفوظ ، صنع الله إبراهيم ، أمل دنقل ، بهاء طاهر ، حنا مينا ، عبد الرحمن منيف ، كازانتزاكيس ، جيمس جويس ، ماركيز ، باولو كويلهو ... بينما أقترح (٣) أن يكون هناك – كل عام – خطة نشر واضحة ومعلنة للعام الذي يليه .
- أقترح (٥٣) النظر في أسعار الإصدارات بالتخفيض .

أهم نتائج الاستبيان :

أولاً – جاءت النتائج لتؤكد المكانة المتميزة التي لا زالت تتمتع بها وسائل التثقيف المطبوعة ، على الرغم من التقدم المطرد للوسائل البديلة .

ثانياً – أكدت النتائج على أن الكتاب – بشكله المطبوع – لا يزال أهم الأوعية المعرفية المتاحة ، كما أكدت على عدم ملائمة وكفاية الوسائل غير الورقية والأوعية الورقية المغايرة ، كالصحف في إشباع الحاجات التثقيفية ، خاصة في صورها الأقل عمومية ، والأكثر تخصصاً ، وهو الأمر الذي يؤهله ليكون الأداة الأكثر فاعلية في تطوير المفاهيم المجتمعية ، والارتقاء بمستوى الوعي العام .

ثالثاً – جاءت النتائج لتدل على ميل كبير للإطلاع العام ، مع وجود نسبه تفوق المتوقع ممن يميلون إلى التثقيف التخصصي ، خاصة في المراحل العمرية المتوسطة .

رابعاً – أكدت النتائج على أن " عامل السعر " في ظل أوضاعنا المعيشية السائدة هو العامل الأكثر حسماً في تقرير اقتناء الكتاب من عدمه ، خاصة بالنسبة للإناث ، والمراحل العمرية الأدنى ، وقاطني الدلتا والصعيد ، والقرى والتوابع بشكل عام ، وهو الأمر الذي يؤكد ضرورة دعم الكتاب الذي لا يقل أهمية عن دعم الخبز والدواء ، وغيرها من الحاجات الأساسية .

خامساً – برهنة النتائج على المكانة غير المسبوقة التي صار يتمتع بها مشروع مكتبة الأسرة ، والتي لم تؤهله للتواجد الفاعل والمؤثر فحسب ، بل جعلت منه مصدراً أساسياً من مصادر المعرفة والتثقيف ، وأهلته إلى أن يتفوق في ذلك على مصادر أقدم ، وأكثر قدرة ، كمؤسسة النشر الخاص .

سادساً – أكدت النتائج حرص المستفيدين من المشروع على توافر إصداراته خاصة في محافظات الدلتا والصعيد ، والقرى والتوابع بشكل عام .

سابعاً – جاءت النتائج لتؤكد تواضع الجهد الإعلامي المبذول تجاه المشروع وإصداراته .

ثامناً – أظهرت النتائج درجة عالية من الرضا العام عن مستوى المؤلفات المنشورة بالمشروع ، مع وجود بعض التحفظات ، خاصة من الإناث ، والمراحل العمرية المتوسطة .

تاسعاً – جاءت النتائج لتؤكد تواضع المستوى الطباعي لإصدارات المشروع .

عاشراً – أكدت النتائج نجاح السياسات التسعيرية للمشروع ، واتساقها مع أهدافه الرامية إلى التواصل الفعال مع النسبة الأعظم من المستهدفين .

حادي عشر – جاءت النتائج لتؤكد ارتفاع نسبة الاهتمام بالعلوم التطبيقية والبحتة عما هو متوقع ، خاصة للمراحل العمرية الأدنى والمتوسطة . وكذا اهتمام الإناث بشكل عام ، والمراحل العمرية المتوسطة منهن بشكل خاص ، باقتناء كتب الأطفال .

ثاني عشر – برهنة النتائج على تلبية إصدارات المشروع لنسبة كبيرة من الاحتياجات المعرفية لجمهور المستهدفين ، مع وجود بعض التحفظات من الإناث ، والمراحل العمرية الأدنى .

ثالث عشر – أكدت النتائج قوة الارتباط بين مشروع مكتبة الأسرة وجمهوره المستهدف الذي يحرص على اقتناء إصداراته ، خاصة في محافظات الدلتا والصعيد ، والقرى والتوابع بشكل عام .

رابع عشر – أظهرت النتائج قدر وافر من الاحتفاء بالمشروع ، ونسبة عالية من الرضا عن أداءه ، وهو الأمر الذي لم يحل دون وجود بعض التحفظات الرامية إلى الارتقاء به ، وتعظيم فوائده .

خامس عشر – جاءت مقترحات التطوير وقد احتوت على الكثير من الرغبات الفردية التي يمكن وصفها – إذا ما صح التعبير – بالذاتية ، والآنية ، والاستهلاكية . ونحن نرى في أهداف المشروع الرامية في الأساس إلى تأكيد منظومة قيمية مجتمعية أكثر رقياً ، وتوفير قدر أعلى من الوعي العام الجمعي ، ما قد يتعارض مع تلبية القدر الأعظم من تلك المقترحات والرغبات ، إذ أن السير باتجاه تحقيق الأهداف الأساسية للمشروع أكثر أهمية ، وأتم نفعاً من السعي إلى ضمان نسبة عاليه من الرضا حول أداءه والقائمين عليه .

سادس عشر – أظهرت المقترحات ضرورة مراجعة الاتجاهات التفصيلية لخطط النشر ، من وقت إلى آخر . ومن هذا المنطلق ، فإننا نتبنى دعوة البعض بالعمل على تكثيف النشر في الموضوعات العلمية ، والتخصصية ، وخاصة المترجمة منها . كما نتبنى دعوة البعض الآخر بنشر واستكمال الأعمال الأدبية لكبار المبدعين . ونتبنى أيضاً الدعوة القائلة بضرورة تواجد خطة نشر واضحة ومعلنة ، وكذلك نتبنى – وبشدة – الدعوة المطالبة بتوزيع إصدارات المشروع على أشهر العام كله ، بحيث يكون له موعد إصدار يومي ، أو أسبوعي ثابت .

* د. جهاد عودة ، مكتبة الأسرة – المشروع الثالث – دراسة موضوعية إحصائية (القاهرة : دار الهدى للنشر والتوزيع) ، ص ٤٧-٥١ .

كيف نستطيع أن نصنع مجتمعاً قارئاً؟ محباً للعلم والتعلم ومندفعاً نحو القراءة والكتاب؟ *

يبدو أن هناك العديد من العوامل التي من الممكن أن تلعب دوراً كبيراً في تنشيط عادة القراءة عند لأبناء المجتمع، وسأتحدث عن كل عامل منها على حده ـ الرغم من تداخل الكثير من الأدوار المشتركة فيما بنيها ـ وهي: الأسرة، المدرسة، المجتمع، الإعلام، الدولة.

أولاً: الأسرة ودورها في تنمية عادة القراءة الكثير من الكتاب عندما يتحدث عن العوامل المؤثرة في تكوين وتنمية عادة القراءة ، يقوم بإدراج (الأسرة) كعامل أساسي وأولي في ذلك ، وما ذلك إلا لأن (قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شيء قبلته) كما عبر عن ذلك الإمام علي رضي الله عنه، والطفل صفحة بيضاء فكلما نقش فيها لون تلونت تلك الصفحة بذلك اللون .. هذا بالإضافة إلى أن تقبل الطفل أكثر وأسرع من تقبل غيره .

ثانياً: المدرسة ودورها في تنمية عادة القراءة مسألة إيجاد الطفل القارئ) المثقف) ليست مسؤولية الأسرة وحدها فحسب، ولكنها مسؤولية المدرسة أيضاً، والمدرسة الابتدائية هي الأساس في ذلك، ومن الأمور البديهية أن من أهم الأغراض التعليمية هي توجيه الأطفال نحو الكتب، إذاً علينا أن نبدأ البناء من أسفل وليس من أعلى فنركز على الطفل الذي هو شاب المستقبل، فنضع برامج تعليمية ومقررات دراسية نبرز فيها بصورة واضحة أن المكتبة والكتاب وغيرهما من المواد الثقافية هي العماد الذي يجب أن يعتمد عليه الطالب، فنربي في الطفل عادة القراءة والقراءة الحرة .

فليس من الصحيح أن نطلب من التلميذ أو الطالب في المدرسة أن يقرأ ويتثقف ذاتياً، اعتماداً على قراءات ومهارات خاصة يزاولها بنفسه دون أن نوضح له الطريق ، فالتعلم الذاتي وربما يكون هو الأسلوب الأمثل خلال عملية التعليم ولكن بعد أن نبين للطالب كيف يكون وبأي صورة يتم ؟

ثالثاً: المجتمع ودوره في تنمية عادة القراءة تقع مسؤولية كبيرة على المجتمع كله وخصوصاً العلماء والمثقفون منهم نحو غرس هذا التوجه ـ القراءة ـ في نفوس أبناء المجتمع صغاراً وكباراً ، وذلك عن طريق مختلف الأساليب المتاحة والممكنة ، وخصصنا الكلام هنا عن العلماء والمثقفين دون غيرهم ، ذلك لأنهم يجب أن يكونوا في موقع القدوة والتأثير على أبناء المجتمع ، ويمكن أن يمارس هذا الدور عن طريق إقامة الندوات والمحاضرات التي تركز على هذا الموضوع المهم وأيضاً عن طريق إقامة المسابقات الثقافية المشجعة ، وغير ذلك من الأساليب ، كقيام المثقفين من أبناء المجتمع بإعارة كتبهم لمن يطلبها ؛ والعمل على إهداء ما توافر منها – بالنسبة لميسوري الحال منهم – فزكاة العلم تعليمه لمن لا يعلمه .

ولا ننس ضرورة مشاركة أبناء المجتمع (رسمياً وشعبياً) في إنشاء المكتبات العامة والعمل على تطويرها من أجل الترويج لعادة القراءة في المجتمع ، وكان من المفترض أن تسهم – المكتبات العامة – مع غيرها من أنواع المكتبات في خدمة المواطنين والمقيمين على اختلاف مستوياتهم الثقافية ، وتخصصاتهم العلمية ، وميولهم المذهبية، ومما يقترح في هذا المجال أن تكون في الجوامع والمساجد وأماكن العبادة عامة مكتبات مناسبة، فذلك قد يشجع من يؤم هذه الأماكن على القراءة وخاصة الناشئة منهم ، نتيجة للصفاء الروحي والتوجه الشعوري الذي عادة ما يحدث لمن يؤم هذه الأماكن فيغلب معه الاتجاه للكسب المعنوي الذي يعد الكسب المعرفي شكلاً من أشكاله.

ففي السابق كان اهتمام المسلمين كبيراً بالمكتبات ، وذلك إدراكاً منهم لأهمية الدور المناط بالمكتبة والكتاب في حياة الإنسان – الفرد والمجتمع – حتى أن ويل ديورانت في كتابه "قصة الحضارة" يقول : "كان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الأوروبية مجتمعة"، وتؤكد المستشرقة الألمانية زيفريد هونكه في كتابها القيم " شمس العرب تسطع على الغرب " نفس الحقيقة إذ تقول : " إن متوسط ما كانت تحويه مكتبة خاصة لعربي في القرن العاشر ، كان أكثر مما تحويه كل مكتبات الغرب مجتمعة "، أما في عصرنا الحاضر، فإننا نشكو من مشكلة " عدم الوعي بأهمية المكتبات في التنمية والتربية والبحث والثقافة، ولا يقتصر عدم الوعي هذا على المواطنين العاديين، ولكنه ينسحب – وهذا هو الأخطر– على المسئولين الحكوميين أصحاب القرارات.

رابعاً: الإعلام ودوره في تنمية عادة القراءة في بعض الأحيان قد تسأل صديقاً لك ، ماذا تقرأ ؟ فيجيبك إنني أقرأ الكتاب (الفلاني) تسأله لماذا بادرت في قراءته ؟ يجيبك: قرأت له عرضاً في إحدى المجلات، أو رأيت إعلاناً له في إحدى الصحف اليومية. من خلال هذا المثال البسيط نستشف أهمية الدور الذي يمكن أن يمارسه الإعلام المكتوب وكذا المرئي والمسموع في الترويج لعادة القراءة في المجتمع، ومما لا شك فيه أن لوسائل الإعلام قدرة كبيرة في التأثير على سلوكيات المشاهد وتفكيره، فوسائل الإعلام العصرية غيرت الكثير من عاداتنا وتقاليدنا، ولسنا في حاجة لسرد القصص والوقائع لإثبات ذلك؛ فالقارئ يستحضر في ذهنه – أمثلة عديدة– كما أتصور .

فالإعلام بإمكانه أن يقدم لنا جرعات صحية باستطاعتها أن تدفعنا للقراءة والكتابة ، من خلال عرضه لكتاب صدر حديثاً أو كتاب قديم كان له تأثيراً على مجتمع من المجتمعات ، وكذا عقد لقاءات مع مؤلفين لهم تأثيرهم على أبناء المجتمع ، ليتحدثوا من خلال برنامج تليفزيوني (مثلاً (عن أحد مؤلفاتهم وبالخصوص الحديثة الصدور، وغير ذلك من أمور.

ففي هذا الصدد يطيب لي أن أتحدث باستطراد عن فكرة " نادي أوبرا للكتاب" البرنامج التليفزيوني الذي تقدمه أوبرا وينفري على شاشة التلفاز، فقد ظل الكثير يعتقد أن الجمع بين متفرقين – التلفاز والكتاب – يبدو صعباً، بل يكاد الكثير يجزم بأن حرباً بينهم لا تسمح لهما بالالتقاء، حتى جاءت فكرة البرنامج ، فأصبح التلفاز نافذة لمكتبة تبيع الكتب ، نافذة يطل عليها عشرة ملايين في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ، وخمسة عشر مليوناً خارجها، البرنامج الذي أدهش دور النشر ومطابع الكتب، فبمجرد عرضه تتطاير من رفوف المكتبات مئات الألوف من نسخ الكتب، يشتريها أناس ما عرفوا القراءة من قبل.

في كل شهر تقف " أوبرا " أمام عين الكاميرا ، وبيدها كتاب، مخاطبة متابعيها هكذا: " هذا اختياري كتاب لهذا الشهر ، أريدكم أن تذهبوا لمكتبات بيع الكتب، أريدكم أن تشتروا هذا الكتاب، أريدكم أن تقرءوه، ثم تطلب منهم أن يبعثوا رسائل إلكترونية أو ورقية محتوية تفاعلهم مع النص، ومن بعد، يتم اختيار أربعة أشخاص من مجموع كتاب الرسائل تلك، يطيرون ـ على حساب برنامج أوبرا ـ من أجل الالتقاء بمؤلف ذلك النص ، وتناول العشاء على مائدة أوبرا ، والتي يتم حولها نقاش النص وتجربة مؤلفه، وتجربة القراء الأربعة، ومداخلات أوبرا ، أمام عين الكاميرا الراصدة ، لتعرض مقاطع من ذلك النقاش، وفكرة عن الكاتب، خلال حلقة البرنامج المعنية " .

نعم ، نحن بحاجة لبرامج كهذه يعرضها التلفاز للتشجيع على عادة القراءة ولبيان ما للمكتبة والكتاب من أثر على حياة الأفراد والشعوب صعوداً أو نزولاً ، بدلاً من تركيز وسائل إعلامنا (المرموقة) على الرياضة التي أكلت الأخضر واليابس !! فلابد أن يقول لنا الإعلام بأن (حاجتكم إلى القراءة كحاجتكم إلى الشراب والطعام).

خامساً : الدولة ودورها في تنمية عادة القراءة من الأدوار التي يمكن للدولة أن تقوم بها من أجل التشجيع على تكوين عادة القراءة في نفوس المواطنين ، قيامها بعمل البرامج الإذاعية والتليفزيونية التي تصب في هذا المضمار – بما أن أغلب إعلامنا رسمي – كقيامها بعمل الندوات والمحاضرات التي تتحدث عن القراءة وأهميتها في الارتقاء بفكر المجتمع وسلوكه وكونها السبيل الذي من خلاله نستطيع أن نعمل على بناء مستقبل أفضل لمجتمعاتنا .

كذلك دعمها للبرامج التي تهدف إلى التعريف بالإنتاج الفكري سواء كان عالمياً أو محلياً ، خصوصاً أن الرغبة في متابعة الإنتاج المحلي موجودة لدى الكثير من الناس الذين لم يتعودوا مسك الكتاب ومداعبة أوراقه ، وقد قامت الدولة الفرنسية بمحاولة من هذا الطراز كتب لها النجاح.

فبإمكان الإذاعة أو التلفاز أن يقوما بالتعريف بإنتاج المواطنين في مختلف مجالات المعرفة، فما يضير إعلامنا لو والعقل.عياً بالتعريف بالإصدارات الثقافية والفكرية لأبناء الوطن ؟ ما الضير لو عرض لنا من خلال شاشة التلفاز برنامجاً يتحدث حول أفكار كتاب جديد عن الأساليب الحديثة لتربية الأبناء والارتقاء بمستوياتهم الثقافية والعلمية ؟ ما الضير لو عرض لنا كتاباً يتحدث عن التسامح وضرورة حل مشاكلنا وقضايانا التي هي محل الخلاف عادة بمنطق الحوار والعقل.. لا بمنطق العصا والسلاح ؟

أليس في ذلك الصلاح والخير لنا؟! فالدولة في الغرب مثلاً " تعلم تمام العلم أن سر التقدم والتفوق على الإبداع ، وأن ما من شيء يؤمن استمرارية هذا الإبداع سوى تشغيل العقل النقدي بالقراءة الدائمة والمجددة للأفكار . فالمطالعة ، من هذا المنطلق عادة حيوية للذهن تحثه على تخطي نفسه باستمرار ، فمن هذا المنطلق بالذات تقع على الدولة المسئولة مهمة السهر على عدم تراجع القراءة عند أبناء شعبها ، وبخاصة عند شبابها ، حيث أنه بذهاب القراءة يذهب الإبداع ، ومعه تذهب القدرة على المنافسة والصمود" .

إننا كشعوب ننتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم الذي تقوم فيه حكوماتنا بإهدائنا المزيد من المكتبات العامة – التي تعد في الغرب من أهم مراكز الإشعاع الثقافي والتربوي – كما فعل" هارون الرشيد" حينما قام بإهداء " مكتبة بيت الحكمة " لبغداد ، تلك المكتبة التي بلغت شهرتها الآفاق ، وكما فعل غيره من الأمراء والحكام الذين حكموا في البلاد الإسلامية أبان العصر الذهبي للمكتبات الإسلامية.

في التسعينات (١٩٩٣م) شعر الفرنسيون بانخفاض في نسبة القراء ، حينها نزل وزير الثقافة الفرنسي ومعه كبار المؤلفين والكتّاب إلى الشوارع والحدائق العامة والمراكز الثقافية ويتحدثون مع الناس من حولهم عن القراءة والكتب في مهرجان عام أسموه (مهرجان جنون المطالعة)، هكذا هم يفعلون.

توصيات:

- يجب أن تسعى الأسرة لخلق شعور في نفسية الطفل بأنه منتسب إلى عالم الثقافة والفكر وذلك من خلال الاهتمام بآرائه ومقترحاته حول ما يقرأ .
- أن تهتم كل أسرة في المجتمع ، بإنشاء مكتبة منزلية وتعمل جاهدة على تزويدها بالكتب والإصدارات الثقافية المختلفة ومن المهم أن تحتوي – المكتبة – على نصيب وافر للأطفال ، إن لم نقل بضرورة عمل مكتبة خاصة بالأطفال .
- توفير الكتب المناسبة للطلاب في المراحل الدراسية المختلفة ، والتي تتميز بخاصية الجاذبية في الشكل والسلاسة في الأسلوب .
- أن تقام معارض للكتاب في المدرسة، بالإضافة إلى إقامة المعارض على مستوى المنطقة والدولة وأن تكون هناك مساحة جيدة من الحرية ، حيث يتاح لدور النشر المشاركة في عرض أكبر عدد ممكن من الكتب والإصدارات الثقافية الجديدة.
- أن تخرج المكتبات إلى الناس، لا أن ننتظر قدومهم ! ، بمعنى أن تقام ندوات ومحاضرات موسمية (مثلاً) لاجتذاب القراء، ويمكن أن يتمثل هذا الخروج عن طريق إقامة المعارض السيارة للكتب وبالخصوص في القرى والأرياف .

- تزويد المكتبات) المدرسية، العامة... الخ) بالوسائل السمعية والبصرية وخدمة الحاسوب التي تسهم في جذب القراء بتقديم خدمة سريعة لروادها .
- تنظيم الرحلات المدرسية المنتظمة لمعارض الكتب المحلية .
- مكافأة كل طالب يأتي بمعلومة جيدة (خارجة) عن الكتاب المقرر. وكل طالب متميز يكتب مقالة للصحيفة الحائطية (في المدرسة، في البيت، في المسجد ، ... الخ) .
- إصدار طبعات شعبية للكتاب بأسعار مقبولة – كما هو الحاصل في دولة مصر – يمكن للشباب أن يقتنيها والعمل على توفير الكتاب المناسب لمن يطلبه .
- ضرورة مشاركة أبناء المجتمع في عمل الدراسات والبحوث والمقالات، التي تسعى وتهدف لإيجاد الحلول لهذا الموضوع المهم .
- أن يأخذ الكتاب مكانه الطبيعي المرموق في وسائل إعلامنا المختلفة ، ويكون هناك تركيز على البرامج الثقافية التي تثير اهتمام المشاهد.
- أن تعقد برامج تليفزيونية، يشار فيها بالبنان إلى المؤلفين وكتاباتهم، وبالخصوص الوطنيين منهم ليكونوا قدوة وأسوة .
- دعم الكتب والإصدارات المختلفة التي تعنى بأدب الأطفال .
- قيام الدولة بتزويد جميع المراكز الحكومية من وزارات ومستشفيات و .. الخ بالإصدارات الثقافية المختلفة ، خصوصاً الجرائد اليومية ، فالمراجع للدوائر الحكومية يبقى أحياناً لفترة طويلة منتظراً دوره ، فلو وفرنا له مجلة أو جريدة في ركن خاص لربما استمتع بقراءتها وقضى على ملل الانتظار .

التقدم التكنولوجي في وسائل الإعلام :

مع التطور التكنولوجي والتقدم والسرعة ـ التي أصبحت سمة هذا العصر ـ بدأ الاتجاه نحو القراءة يضعف وازداد إقبال الناس على الأجهزة الحديثة المرئية والمسموعة وبظهور الأقمار الصناعية التي تربط الشعوب من أدنى الأرض إلى أقصاها انخفض الإقبال على القراءة، وتدنت أهمية القراءة عند العديد من الناس بظهور الكمبيوتر الحافظ للكتب وهو جهاز صغير يبرمج بعض الكتب فيقوم بحفظ المعلومات التي تحويها كاملة بحيث يستطيع الفرد قراءة الكتاب في دقائق معدودة. ويرى المثقفون والمفكرون والأدباء أن ظاهرة العزوف عن القراءة ليست ظاهرة خاصة تنفرد بها مجتمعاتنا العربية فقط وإنما هي سمة تسود دول وشعوب العالم أجمع .

ويرى هؤلاء أن التقدم التكنولوجي في وسائل الإعلام ليس هو السبب الوحيد في تلك الظاهرة بل إن هناك أسباباً أخرى لا تقل أهمية يأتي على رأسها المشاكل والأزمات السياسية والاقتصادية التي تحيط بالناس بالإضافة إلى الحروب التي تشتعل في الدول بين الحين والآخر.

ومن المؤكد أن شبكة الإنترنت أو الكتاب الإلكتروني وعلى الرغم مما يوفرانه من قدرات ومزايا عظيمة في مجال تداول المعلومات المركزة فإنهما ليسا الوسيلة ذات الأفضلية لدى القراء وهو ما يؤكد استمرارية الكتاب في أداء رسالته التثقيفية والتعليمية وفي الحفاظ على نشر الفكر والثقافة والأدب لعقود كثيرة مقبلة.

كثيرون من القراء في هذا الزمان لا يصبرون على الكتب العلمية التي تحتاج إلى الرؤية وبعد النظر ودقة الفكر ؛ لأن وسائل اللهو ومشاغل العيش وأعباء الحياة تحول بينهم وبين ذلك، هذا فضلاً عن أن استيعاب العلم يحتاج إلى جو هادئ بعيد عن الضجيج والعبث واللهو، وهذا لا يتيسر – مع الأسف – في كثير من البيوت والمجتمعات، وهذا من الحضارة الحديثة التي غرتنا في بيوتنا وأسواقنا ومجالسنا فتركت فينا الأثر السيئ، وألحقت بنا وبأخلاقنا وسلوكنا الضرر البالغ!! اليوم العالمي للكتاب والمكتبات الإلكترونية ومعارض الكتب والعزوف عن الكتاب يحتفل العالم كل عام باليوم العالمي للكتاب وحقوق النشر الذي يصادف يوم 23 من شهر أبريل، ويعود الاحتفال بهذا اليوم إلى عام ١٩٩٥م عندما أتخذ المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) قراراً بأن يكون يوم ٢٣ أبريل من كل عام يوماً عالمياً للكتاب وحقوق النشر.

واليوم يعيش الكتاب مرحلة التنافس مع الوسائل التكنولوجية الجديدة في مجال حفظ وتداول ونشر المعلومات بعد أن تزايدت الأصوات التي تقول بانتهاء الكتاب في شكله التقليدي واتجاه القراء عبر شاشات أجهزة الكمبيوتر بأشكالها المختلفة.

ولتحقيق أهداف القراءة منذ الصغر طبق المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت في عام ٢٠٠٠ برنامجاً علمياً بعنوان (لماذا نقرأ؟) وهو برنامج موجه لفئة الشباب يحرص من خلاله المجلس على غرس حب القراءة فيهم وتشجيعهم على ارتياد المكتبات العامة وترجمة ذلك في إبداعات أدبية مختلفة، ويستهدف البرنامج القضاء على تفشي ظاهرة العزوف عن القراءة وعلاجها بشكل علمي وموجه للفئات العمرية من ٦ إلى ١٢ عاماً.

وسيعمل البرنامج على خلق قاعدة ثقافية من الشباب وتنمية قدرتهم على التعبير عن الأفكار الخاصة بجمل بسيطة سليمة بالإضافة إلى تشجيعهم على القراءة اليومية لمدة ١٠ إلى ٢٠ دقيقة لخلق عادة القراءة وكذلك تشجيعهم إلى توجيه العادة للقراءة المنهجية.

كما أن هناك مشروع رائع وطموح وهو مشروع واحة الأمير سلمان للعلوم بالتعاون مع وزارة التربية والتعليم برنامج موجه للطلاب وأسرهم لغرس حب القراءة بأساليب علمية مشوقة.

القراءة ليست هواية:

تكفي الإحصائية التي قرأتها في جريدة محلية للدلالة على مدى معاناة الكتاب معنا كعرب إذ قرأت في الإحصائية أن متوسط ساعات القراءة في إحدى الدول الأوروبية يصل إلى ٢٠٠ ساعة سنوياً، بينما تنخفض هذه الساعات وتتقلص و"تنبطح "إلى ٦ دقائق فقط سنوياً للفرد العربي ! والعهدة على الصحيفة. وقد قامت إحدى الباحثات بدراسة قبل سنتين على أحد مراكز التدريب النسائية في موضوع القراءة واستخدام المكتبة الموجودة في المركز. النتائج كانت مذهلة أكثر من ٤١ % من المتدربات طوال سنوات التدريب لم تعتب أرجلهن داخل المكتبة لاستعارة كتاب واحد ٧٠ % تقريباً يقرأن فقط ما يطلب منهن ومعظمها تكون مناهج دراسية ٦٦ % منهن قراءاتهن تقتصر على المواضيع العامة من المجلات (النسائية) والصحف المحلية ٧١,٦ % يعتقدن أن الاستمتاع هو الهدف الرئيسي من وراء القراءة .

وتم عرض نتائج الدراسة على زميلة عمل أمريكية فعلقت عليها وقالت " أعتقد أن العرب في مرحلة من مراحل تاريخهم كانوا يقرؤون ليتعلموا أما اليوم فإنهم يتعلمون أن يقرؤوا فقط .

المعرفة قوة – المعرفة تحرر :

إن خاصية المعرفة لا تنصب فقط في رفع قدرة الفرد على القراءة والكتابة وإجراء بعض العمليات في الرياضيات بل في تشكيل اللبنات الأساسية لاستقلاله الذاتي وتزكيتها لمشاركة إيجابية في المجتمع الذي ينتمي إليه.

وفي فترة الدراسة فإن الطفل يريد أن يقرأ هو بنفسه ويظهر مدى براعته في القراءة. وهنا يجب أن نستغل هذه الفرصة المتاحة لنا في توجيه الطفل إلى القراءة الصحيحة والمفيدة، وهنا يظهر لنا منافسان أو منافسون ألا وهم (التليفزيون والكمبيوتر وحتى الإنترنت) في وقتنا الحالي، فنرى بأن الطفل توجه إلى هذه الوسائل بشغف وهذا طبيعي. لذا يجب على الأهل أن يعطوا للقراءة حصتها ضمن هذه الوسائل. وكلما كان الأهل من المهتمين بالكتاب والقراءة كان الطفل كذلك. وكذلك فإن وجود مكتبة أو رفوف مخصصة للكتب يشكل حافزاً على جعل الطفل يتطلع لأن يكون قارئاً جيداً، وعاملاً جيداً لنشوء علاقة صداقة حميمة بين الكتاب والطفل .

وبعد هذه المرحلة وحتى بداية مرحلة الشباب يتوجب على الكتاب والمؤلفين ودور النشر الاهتمام بهذه الفئة من المجتمع بتأليف ونشر الكتب والقصص التي تحد من تأثير المغريات التي ذكرناها سلفاً (التلفزيون والكمبيوتر والإنترنت) من خلال اهتمامهم بأدب الأطفال، ذلك لأنه أقوى أساس يقوم عليه التكوين العقلي والنفسي والعاطفي لهذه الفئة وخير سبيل ينمي مدركات الخيال ويرهف الإحساس بالجمال عند الأطفال وأحسن أسلوب تتأصل به القيم السياسية والاجتماعية، وترسو به قاعدة العواطف الدينية والقومية عند الناشئة، فينمو الطفل من حالة العيش حول ذاته إلى كائن اجتماعي يتمركز حول الآخرين وتتحول المتعة عنده إلى الخلق والإبداع. القراءة قضية من ؟ هي قضية الجميع، بدءاً من الأسرة التي تتحمل مسؤولية رعاية الميول وتنمية الاتجاهات نحو القراءة منذ الصغر، مروراً بالمدرسة التي تتولى مسؤولية تعليم القراءة، وتعزيز حبها في نفوس الناشئة، ثم المجتمع بجميع مؤسساته التي تتحمل مسؤولية تشجيع القراءة وتيسير الحصول على مصادرها، وانتهاء بأعلى سلطة في الدولة، ومسؤوليتها في رعاية برامج ومشروعات القراءة بوصفها عاملاً مهماً من عوامل رقي الوطن، ورفعته، وعلو شأنه في أوساط الأمم الأخرى. وتقدم الأمم مرهون بمدى قراءة أفرادها، وقد سأل فولتير مرة : من يقود الأمم ؟ قال : الذين يقرؤون ويكتبون، ولم يقل : الذين يعرفون القراءة أو الكتابة.

لم يصل مستوى القراءة والوعي القرائي في الدول المتقدمة إلى ما وصل إليه إلا لما شغلت اهتمام الجميع . وقد ترجم هذا الاهتمام في مظاهر عدة أبرزها إنشاء الجمعيات العلمية المتخصصة في القراءة والتي من أبرز أهدافها نشر الوعي القرائي في أوساط الناس، وتنظيم الأنشطة والبرامج والمحاضرات والندوات التي تخدم تلك الأهداف . وهذه الجمعيات العلمية لا يقتصر نشاطها على فئة المثقفين والأكاديميين فقط – كما هو الحال في الجمعيات العلمية لدينا – بل يمتد إلى فئات الشعب المختلفة خصوصاً الأطفال، والآباء والأمهات، والمعلمين، والمهنيين في جميع التخصصات، في الطب والهندسة والعلوم والتقنية وغيرها، فالقراءة ليست حكراً على فئة دون أخرى، بل هي هم الجميع، وفن الجميع، ومطلب الجميع، ومن أشهر الجمعيات في هذا المجال "جمعية القراءة العالمية"، وهي جمعية أمريكية الأصل والمنشأ لكن لها فروعاً كثيرة في بلدان العالم المختلفة . وهذه الجمعية تصدر عدداً من الكتب الموجهة والعلمية المتخصصة كل سنة، وتقيم عدداً من المعارض والمناشط العامة، فضلاً عن المؤتمر السنوي الذي يحضره أكثر من عشرين ألفاً من الآباء والمعلمين والخبراء والأكاديميين.

إننا أمة لا تقرأ ! إن ما يتم ترجمته من عدة لغات إلى اللغة الإسبانية فقط أضعاف ما يتم ترجمته في الوطن العربي بكامله ويصدر لديهم من الكتب ضعف ما يصدر لدينا عدة مرات وتجد هناك أعداداً كبيرة في أوروبا وأمريكا وشرق آسيا تقتني هذه الكتب بشكل كبير حيث تنفذ ملايين النسخ من الكتاب الواحد من الأسواق في وقت وجيز وقد يحتاج إلى عدة طبعات ليواجه الطلب . بينما لدينا تتم طباعة آلاف النسخ من أي كتاب ويبقى في الأسواق مدة طويلة قبل أن ينفد وهذا لا يعود لابتعاد كثير من فئات المجتمع عن القراءة ومتابعة كل ما هو جديد في عالم اليوم.الأسباب المؤدية للتخلي عن الكتاب والعزوف الجماعي عنه :

- غياب القدوة داخل المنزل فكثير من الآباء والأمهات في مجتمعنا بالذات لا يعطون الكتاب الاهتمام الكافي ولم يسبق لكثير من الأبناء أن شاهد أحد والديه ممسكاً بكتاب وقليلاً ما يحاول أحد الآباء أن يوفر كتباً مناسبة لأبنائه وخاصة في سن مبكر حيث يتم غرس حب القراءة في هذا السن بشكل كبير، وسوف يتأثرون إيجابياً إذا تعودوا على رؤية أحد والديهم وهو يقرأ ويعتني بالكتب حيث سيقوم بتقليده ومن ثم يصبح حب الكتاب عادة يتعود عليها الأبناء .
- غياب المكتبة المتحركة حيث أن كثيراً منا يهتم بجميع مرافق المنزل ويتجاهل مسألة توفير مكتبة منزلية.
- إغفال أهمية التوجيه المستمر من قبل الآباء والمعلمين للأبناء بضرورة الإطلاع وأهميته وحثهم وتشجيعهم على ارتياد المكتبات وأن الكتاب وسيلة مهمة للتحصيل العلمي والثقافي وذو أهمية كبرى في حياة الشخص حتى بعد تركه مقاعد الدراسة وعدم وجود الحافز المعنوي وخاصة لصغار السن.
- وجود المكتبات العامة بمنأى عن الأحياء السكنية في غالب المدن حيث إن الآباء ليس لديهم الاستعداد الدائم لتوصيل أبنائهم إلى المكتبة .
- وجود وسائل الترفيه المتعددة والقنوات الفضائية التي أصبحت في كثير من المنازل حيث أصبح الأبناء يقضون جل وقتهم في متابعتها .

الأفكار والحلول المقترحة لعلاج ظاهرة ضعف القراءة :

- توعية الآباء بدورهم الهام جداً في تربية الأبناء على حب القراءة والإطلاع وكونهم القدوة الحسنة ودور البيت المهم حيث إنه البنية الأساسية في المجتمع فإذا كان دوره إيجابياً وفعالاً انعكس ذلك على المجتمع بصفة عامة .
- إيجاد المكتبة المنزلية أمر ضروري واعتبارها من الأولويات المهمة في كل منزل حيث تعد المرجع الأول لكل طالب بحيث تتضمن مجموعة متعددة من الكتب ابتداء من القصص المخصصة للأطفال وانتهاء بأمهات الكتب .
- فتح فروع من المكتبة العامة في كل الأحياء لتكون قريبة من سكان الحي بحيث يسهل التردد عليها ولتكون جدواها أكبر من كونها في موقع واحد بعيداً.
- أن يوضع في الاعتبار أن أي مخطط جديد لابد من إيجاد أرض مخصصة للمكتبة أسوة بالحدائق والمراكز التجارية فهي في الواقع أهم بكثير واعتبارها شرطاً إلزامياً للموافقة على أي مخطط يتم إنشاؤه.
- إيجاد مناهج لتعليم الطالب وإرشاده إلى كيفية الرجوع للمصادر وكيفية استخدامها، وهذا الأمر ربما يكون متاحاً نوعاًما حالياً من خلال مادة المكتبة والبحث، ولكن في ظل الظروف التعليمية التي نعيشها الآن في مدارسنا،

- فالأمر ربما يكون صعباً للغاية نظراً للزيادة في عدد المواد المقررة، ونظراً لاعتمادها بصورة كبيرة على عملية التلقين أثناء التدريس، وعلى عملية الحفظ عند المراجعة، وهذا أسلوب خاطئ، كما يتحدث الكثير من التربويين، فالمدرسة بإمكانها أن تعمل على تغيير اتجاهات الطلبة والانتقال بهم من حالة العزوف عن القراءة إلى حالة الولع بها، وينبغي للمدرسة أن تقوم ببعض ذلك الدور من خلال إيجاد حصة القراءة الحرة التي يختار الطالب أثناءها ما يريد قراءته من مواد بتوجيه من أمين المكتبة، وكذلك باستخدام أسلوب القصة خصوصاً في المرحلة الابتدائية، ولن يكون ذلك إلا بوقفة شجاعة من المسئولين لبدء إصلاح السياسات التعليمية في وطننا العربي والإسلامي .
- توفر الكتاب بسعر مناسب فالقارئ يحصل على الكتاب ويوفر عليه الانطلاق إلى المكتبة وطلاب الجامعات يجدون في مكتبات الجامعة والإعارة ما يسد حاجاتهم ويغنيهم عن المكتبات العامة .
- أقل الشعوب قراءة: إن هناك إقبالاً على كتب الكمبيوتر وكيفية الدخول إلى شبكة الإنترنت والحصول على المعلومات التي يريدها، كما أن هناك إقبالاً على كتب التسويق والكتب السياسية وهناك إقبالاً على نوعية معينة من الكتب، وهي تلك التي تناسب العامة، مثل المواعظ والخطب الدينية.

إن الكتاب مهم وإنه مهما تطورت القنوات الفضائية وجددت من برامجها، إلا أن المعلومات التي تضخها ستظل سريعة النسيان، بعكس الكتاب الذي تبقى فائدته. وإن أهمية الإعلام والدور الكبير الذي من الممكن أن يلعبه في توجيه القارئ إلى الكتب الجيدة التي تستدرجه إلى المعارف والمعلومة الهامة بشكل شيق، دون أن تدخل الملل إلى نفسه .

إن ميل المواطن العربي إلى أسلوب الشفهية حيث إن قارئ الكتاب يروي محتواه لأصدقائه ومعارفه شفاهة، فضلاً عن تقصير الجهات الحكومية والمؤسسات الإعلامية عن الإضطلاع بمهمة تشجيع الجمهور العربي وتحريضه على القراءة، من قبيل تعويد التلميذ منذ الصغر على القراءة باعتباره تمريناً محبباً إلى قلبه، ففي إحصاءات حديثة عن منظمة اليونسكو، تبين أن نسبة الأمية مرتفعة في الوطن العربي (أو الشرق الأوسط) وتزيد على ٢٨ % لدى البالغين . أما الأمية المعلوماتية، فلا تزال حتى اليوم تزيد على ٩٨ % من البالغين، لا يعرفون استخدام الحاسوب . كما تراجعت صناعة الكتاب الورقي، فهي لا تتجاوز ٢٩ عنواناً لكل مليون نسمة مقارنة مع ٧٢٦ في البلدان المتقدمة، وحتى قراءة الصحف والمجلات وجميع الوسائل الورقية انخفضت ؛ إذ لم تتجاوز حصة الفرد من استهلاك المطبوعات في البلاد العربية أكثر من نصف كيلو غرام للفرد سنوياً، في حين تصل هذه الحصة إلى ٥ كيلو غرام للفرد في البلدان المتقدمة في سوريا مثلاً تراجعت صناعة الكتاب التي راجت في السبعينيات، ولم تتجاوز عام ١٩٩٣م ٥٩٨ عنواناً

(وهم رقم كبير بالنسبة لسنوات أخرى)، لكنه ضئيل بالمقارنة مع بلدان حديثة التصنيع مثل ماليزيا التي تزيد في عدد السكان عن سوريا بمقدار خمسة ملايين نسمة، لكن طبعت في العام ذاته ٣٦٩٥ عنواناً لقد أجري استبياناً منظماً لمعرفة مشكلات القراءة عند الشباب، لعينة طبقية عنقودية تمثل نسبة ٥,٧ بالألف من طلاب جامعة دمشق، بمختلف كلياتها وأقسامها العلمية والنظرية، وتبين أن ٢٠ % لا يقرؤون مطلقاً باستثناء مقرراتهم الدراسية، وهناك ٢٠ % أخرى تقرأ مراجع في ميدان اختصاصها فقط ..
أما درجة القراءة عند القراء فهناك ٢٦ % يقرؤون أقل من ساعة يومياً، ونحو ٣٥ % بين ساعة وساعتين، في حين نسبة لا تتجاوز ٢ % يقرؤون ما يزيد على ٤ ساعات يومياً، غالبيتهم يدرسون في كليات علمية، أما حول وسيلة القراءة المفضلة، فهناك ٦٤ % من القراء الذين يقرؤون الصحف، وإلى جانب ذلك فإن من يقرؤون الكتب لا تتجاوز نسبتهم ٦٧ % من العينة وحول مكان القراءة المفضل، عبر ٦٤ % أن المنزل له الأفضلية الأولى، في حين من يرتادون المكتبات العامة والمراكز الثقافية هم ٣١ % فقط وحول مدى توفر مكتبة منزلية، أجاب ٦٤ % منهم أن لدى الأسرة مكتبة منزلية .

أوضحت نتائج بحث رسمي نشرت في لندن أن واحداً بين كل خمسة من المواطنين البالغين في بريطانيا يواجه صعوبة في القراءة والكتابة وبذلك يكون في مصاف الأميين أو شبه الأميين لأن مستواهم في القراءة والكتابة دون مستوى طفل أقل من الحادية عشر من عمره .

وكشفت الإحصاءات وزيرة التعليم البريطانية استيل موريس التي قالت أن ذلك موروث من حقبتي السبعينات والثمانينات التي افتقدت التركيز على ضبط القراءة والكتابة والرياضيات مبينة أن واحداً من بين كل أربعة من البالغين في بريطانيا لا يجيد التعامل مع الأرقام كتابة في الجمع والطرح والضرب والقسمة وأن عدد الذين يواجهون صعوبات في القراءة والكتابة وأساسيات الرياضيات يصل إلى حوالي سبعة ملايين مواطن .

وقالت الوزيرة البريطانية أن فقدان القدرات الأساسية له تأثير كبير على طبيعة حياة المواطنين ونوعية العمل والوظائف التي يمكنهم الحصول عليها. المكتبات العامة بلا رواد !!!

إن عزوف الشباب والطلاب عن ارتياد المكتبات يمكن أن نعزوه لعدة أسباب أهمها :

- عدم توفر الرغبة في القراءة لدى أكثرية الشباب والطلاب في الوقت الحاضر واستحواذ الرياضة والفنون الأخرى على عقول عدد منهم وإنشغال بعض الشباب بالوسائل الترفيهية المختلفة نظراً لوجودها في البيوت وتنوعها وسهولة استعمالها دون جهد يذكر وانعدام الحوافز التشجيعية لمرتادي المكتبات بشكل عام ومن الوالدين في البيت بشكل خاص .
- سوء تنظيم الوقت لدى الغالبية العظمى من الشباب مما يفوت عليهم فرصة الاستفادة من الوقت ويتمنى إرشاد الشباب وحثهم على تنظيم الأوقات وأن الدراسة لا تمنع من الإطلاع وأن الإطلاع لا يضيع الوقت ولا يفوت الدراسة وتثبيت ذلك في أذهانهم .

- وقد يكون موقع المكتبة أحد الأسباب وما يصاحب هذا الموقع من أمور مثل عدم توفر وسيلة النقل لدى بعض الطلاب وعدم مساعدة أهلهم في إيصالهم إليها كما أن بعض المكتبات لا يمكن للقارئ داخلها أن يتكيف للقراءة في جو من الهدوء لقربها من الشوارع الرئيسية في بعض المدن .

ويقترح أن تكون هناك مسابقات ثقافية تشترك فيها المدارس بحيث تدفع الطالب للرجوع للمكتبة وأخذ المعلومات منها، كما يمكن أن يقوم أمناء ومسئولو المكتبات العامة بين الفترة والأخرى بجولات على المدارس يبين فيها أهمية زيارة المكتبات والتعريف بموقع المكتبة داخل المدينة أو الحي .

تأصيل عادة القراءة في أطفالنا قبل المدرسة :

هناك مفهوم سائد لكنه خاطئ مؤداه أن تنمية حب القراءة عند الأطفال وربطهم بالكتاب هي مهمة المدرسة وحدها، ويجب الانتظار إلى حين وصول الطفل سن السادسة ودخوله المدرسة ومعرفته للحروف، ومن ثم يتعلم القراءة ثم يرتبط بالكتاب .. وهذا المفهوم لا يتوقف الإيمان به عند غير المثقفين والمتعلمين بل عند بعض المتخصصين في التربية أيضاً . وقد يضاف إلى هؤلاء بعض المتخصصين في علوم القراءة والكتابة الذين يستغربون ما عرضه الطبيب ميخائيل ميقارلادو في مجلة فوكس أون هيلث في أحد أعدادها تحت عنوان " كيف تربط أبناءك بالكتاب " والذي أشار فيه إلى أن تعليم الأطفال للقراءة يبدأ منذ بلوغ الطفل سن ٦ أشهر ..!

وبدأ الدكتور ميقالاردو مقاله بالسؤال التالي : هل تريد أن تربي قراء جيدين ؟ إذن عليك أولاً أن تتعرف على مهارات السرد القصصي للأطفال فأسلوب السرد القصصي والقراءة للأطفال ومع الأطفال منذ سن مبكرة له أثر بالغ الفعالية على نمو أطفالك الذهني والوجداني ووفقاً لأكاديمية الأطفال الأمريكية (AAP) فإن ٥ % فقط من الأطفال يقرأ لهم من والديهم. إن الطريقة التي تقرأ بها لأطفالك هي أهم عامل مؤثر على ربطهم بالكتاب، وهي أهم حتى من الكمية التي تقرؤها لهم. فمن المهم أن تشجع طفلك على المشاركة في أثناء القراءة، وإلا فإن استفادته من القراءة ستكون محدودة، وستكون شبه منعدمة إذا كان مستمعاً ساكناً. وفي دراسة نشرت في دورية " علم نفس النمو " أثبت بعض الباحثين المتخصصين الاستفادة من القراءة " الناشطة " في برنامج خصص للقراءة لأطفال يبلغون عامين . وتقول الدراسة إن القراءة الناشطة تتمثل في إشراك الآباء والأمهات أبناءهم في الحوار الذي يقرؤونه في قصة، وقد حقق الأطفال الذين يندمجون في تلك الحوارات مستويات متقدمة في تنمية الثروة اللغوية.أوضحت بعض الدراسات انه كلما كان هناك تبكير في الثقافة وإثراء خبرات الأطفال بالكتب والقصص قبل المرحلة الابتدائية كان استعدادهم للتعلم والقراءة والكتابة أفضل . ولسوء الحظ فقد أشارت دراسة حديثة نشرت في أبريل من عام ١٩٩٩م إلى أن حوالي واحد من كل أربعة منازل من ذوي الدخل القليل الذين لديهم أطفال لديهم أقل من عشرة كتب فقط من أي نوع، وللقضاء على هذه المعضلة ومقارعتها، قام الأطباء في طول أمريكا وعرضها بالاشتراك في برنامج "توزيع الكتاب "وذلك من خلال عياداتهم . فكل طفل يزور عيادة أطفال وهو لم يصل بعد سن المرحلة الابتدائية تقدم له هدية من الكتب .
يقول جدنس كلبرث رئيس تحرير مجلة ((

Scholastic's parents and Child Magazine))إنه بالرغم من أن المدرسة تلعب دوراً هاماً في تنمية حب القراءة لدى الأطفال إلا أن الوالدين يجب أن يكونوا قدوة لأبنائهم . فإذا لم يكن البيت غنياً ومفعماً بالقراءة مملوءاً بالكتب، فإن ارتباط الأطفال بالقراءة سيكون احتمالاً ضعيفاً. تعويد الأطفال القراءة يجب أن يبدأ مبكراً وقبل وقت طويل من التحاق الأطفال بالمدارس ؛ لأن الدراسات والأبحاث أثبتت أن مهارات القراءة التي تم اكتسابها مبكراً وثبت وجودها لدى أطفال الصف الأول ابتدائي هي نفسها التي يعود إليها ارتفاع درجات القراءة لدى طلاب الصف الثالث الثانوي.

يجب أن لا تكون الكتب على الأرفف المرتفعة التي تسمح بتراكم الغبار عليها، يجب أن تكون الكتب في كل مكان يوجد فيه الطفل في المنزل، يجب أن تكون الكتب في المطبخ في غرفة نوم الأطفال، تغطي الكتب بالبلاستيك وتوضع في الحمام (عدا ما تحتوي على الآيات والأحاديث أو ذكر الله) ضع بعض الكتب في السيارة، أحمل بعض الكتب إلى الأماكن التي يمكن أن تجبر على قضاء وقت طويل مع ابنك فيها، كالانتظار في المطارات أو الوقوف في صف طويل أو في عيادة الطبيب.

ولمساعدة الأبناء على أن يكونوا "قارئين شاملي الثقافة" لابد من مرافقتهم إلى المكتبة، حدد يوماً ما في الأسبوع لزيارة العائلة إلى المكتبة، إذا تعود الأطفال مثل هذه الزيارات فسينتظرونها بفارغ من الصبر كل أسبوع، حدد وقتاً وسمه "وقت القراءة العائلية .

* الكاتب الأصلي للمقالة :

د. جبريل بن حسن العريشي

رئيس قسم المكتبات والمعلومات جامعة الملك سعود

المصدر: مجلة المعلوماتية

http://informatics.gov.sa/magazine/m...icle&artid=150

ملخص كتاب: القراءة عنوان للثقافة والتمدن

القراءة في الكتب والصحف والمجلات أو عبر شبكة الانترنت تضيء مضائق الأذهان وتحول العتمة إلى نور وتمنحنا النشاط الذهني وجرعات من العلم والمعرفة والتفقه وتعطينا نوراً وبهاء وسط الظلمة الحالكة وتصوب خطواتنا وتجعلنا نزن الأمور بقسطاس الحكمة والتبصر .

فالكتاب له بصمة عزيزة في قلوب العامة والمبدعين وهو غذاء للروح والعقل والقلب ، وكلما كانت هناك قطيعة مع الكتاب ، كلما تفشت فيروسات الجهل وتوطن التخلف في أعماق الإنسان .

للقراءة طقوس لذيذة لا يفهمها إلا من أدمن حب الكتب والمكتبات وعشق الأحرف وكسر شرنقة التيبس الفكري . فالقراءة هي اللبنة الأساسية في تكوين المعارف والعلوم والسلاح الأمضى في محاربة الجهل والتخلف والتقهقر الحضاري .

والمكتبات عنوان لحضارة وتمدن المجتمعات وتعتبر جزءً من الهوية الحضارية للشعوب ، وكل شعب من الشعوب يفتخر بعلمائه ومثقفيه ومكتباته . فالفرنسيون يفتخرون بمكتبة السربون التي أسست عام ١٢٥٧م ، والإنجليز يفتخرون بمكتبة أكسفورد التي أسست عام ١٦٠٣م ، والأمريكيون يفتخرون بمكتبة الكونجرس التي أسست عام ١٨٠٠م ، ونحن كعرب نفتخر بمكتبة بيت الحكمة في بغداد التي أنشئت عام ٨١٣م ، والمصريون جذلون بمكتبة الإسكندرية التي أسست عام ٢٨٨ق.م وأعيد افتتاحها عام ٢٠٠٢م .

وعندما لا تهتم المؤسسات بالقراءة والكتاب والثقافة الحقيقية فإن ذلك يشكل طاقة خطر على المجتمع ، وتشعر بعض النخب أنها ليست بحاجة للعلم والكتاب والمعرفة فترتكب حماقات كتلك الحماقات التي حدثت في الثورة الفرنسية حين أطاحت بـ(١٤٠٠) رأس من البشر ، وفي معمعة الأحداث اقتيد عالم الكيمياء الفرنسي أناتوني لافويزي إلى المقصلة مع عظيم إذلال واعتساف لآدميته ، فأخذ يصرخ في وجهه ضابط ببزته العسكرية لا يعرف لغة الرحمة (الجمهورية لا تحتاج للعلماء) .

الكتاب يجيب عن الاستفسارات التالية :

- ما علاقة القراءة بالثقافة ؟
- ما فوائد القراءة للإنسان ؟
- وهل تساعد القراءة على تشكيل القيم الاجتماعية ؟
- وهل نعاني من فقر ثقافي ؟
- وما العوامل التي أدت إلى عزوف الشباب عن القراءة ؟

ويتضمن الكتاب ملحقاً بأقلام كوكبة من المبدعين يبسطون فيه تجاربهم في القراءة والكتابة والإبداع الثقافي .